وَصْفُ إفريقيا

للحسن بن محمد الوزان الفاسي

المعروف بليون الإفريقي

ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي
دكتور دولة من الجامعة السربونية

محمد الأخضر
دكتور دولة من جامعة السربون

دار الغرب الإسلامي

0160970

منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

وَصْف إفريقيَا

للحسن بن مُحمّد الوزان الفاسي

المعروف بليون الإفريقي

الجزء الأوّل

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف [illegible]
رقم التسجيل ٨٧٧

ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي
دكتور دولة من جامعة السربون

محمد الأخضر
دكتور دولة من جامعة السربون

الطبعة الثانية

دار الغرب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

طبعة ثانية 1983

دار الغرب الإسلامي

ص. ب: 113 - 5787
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

نفاد طبعة كتاب علمي في أقل من سنتين ظاهرة جديدة في المغرب تبشر بالخير، وتنبيء نبأ يقين بأن طبقة القراء في تزايد وتكاثر، وأن غد هذه البلاد السعيدة في ميدان الفكر خير من يومها.

لقد كتب الأستاذ محمد بن العربي من مراكش تعليقا مطولا في العلم الثقافي (6 مارس 1981) على الجزء الأول من ترجمتنا لكتاب **وصف إفريقيا**، دلت على روحه العلمية، وسعة اطلاعه على المصادر العربية والأجنبية، واستفدنا من ملاحظاته القيمة في هذه الطبعة الثانية لا سيما في البيبليوغرافيا. وأشار الناقد المحترم، بشيء غير قليل من الالحاح والاستعجال، إلى ترجمة أخرى لـ **وصف افريقيا** صدرت في المشرق بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافي الاسلامي بالرياض سنة 1979 مستغرباً سكوتنا المطبق عنها. وقد ضربنا فعلا عنها صفحاً لأمرين: أولهما أن الجزء الأول من ترجمتنا كان قد قدم إلى المطبعة قبل انعقاد المؤتمر الجغرافي؛ والثاني أن جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض التي استدعتنا لحضور المؤتمر، بعد أن اطلعت على الفصل المنشور من ترجمتنا لوصف افريقيا بالمجلة التاريخية المغربية الصادرة بتونس (العدد 12، يوليوز 1978، ص 202-206) ألحت — في مراسلات متعددة — على ان تطبع ترجمتنا (أنا والأستاذ الأخضر) لـ**وصف إفريقيا** بمناسبة انعقاد المؤتمر، لكننا اعتذرنا بضرورة التريث والتمهل في نشر ترجمة نص في غاية الصعوبة والتعقيد. ولما لم تجد الجامعة منا استجابة لطلبها كلفت الدكتور عبد الرحمان حميدة بترجمة الكتاب وطبعه في

بضعة أشهر! وفوجئت في المؤتمر بالكتاب، فأقبلت على قراءته، وتعرفت منذ الصفحات الأولى على حالته المفجعة، ـ بتراً وخلطاً وقلباً ـ وعوضاً عن البحث الذي هيأته عن الوزان ووزع على اعضاء المؤتمر خصصت تدخلي في الجلسة العلنية لانتقاد هذه الترجمة انتقاداً لاذعاً ومهذباً بحضور الدكتور عبد الرحمان حميدة. وما كان غرضي التعرض إلى هذا الموضوع، ولو ترك القطا لنام.

الرباط في فاتح ربيع الثاني 1402 / 27 يناير 1982

محمد حجي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

(أ) ترجمة المؤلف(*):

الحسن بن محمد الوزان الفاسي شخصية عربية إسلامية فذة، اجتمع له من الخصال العلمية والإنسانية ماجعل الغربيين المسيحيين

(*) مصادرترجمة الحسن الوزان الفاسي (مرتبة ترتيباً زمنياً):

1 ــ الحسن الوزان نفسه في كتابه وصف افريقيا، في مواضع متعددة.
2 ــ المعلم بطرس البستاني، دائرة المعارف، 28:4. سنة 1876.
3 ــ سليم أفندي ميخايل شحادة، في الجغرافية وجغرافيي الاسلام، مجلة المقتطف، سنة 1883، ج 7، ص 713.
4 ــ شفير، مقدمة الترجمة الفرنسية لكتاب وصف افريقيا سنة 1896 ص 38.
5 ــ ل. ماسينون، المغرب في السنوات الأولى من القرن السادس عشر، سنة 1906، ص 32 وما بعدها.
6 ــ ل. ماسينون، دائرة المعارف الاسلامية، 3:22-32.
7 ــ مترجمو ليون الافريقي، هيسبريس، سنة 1930.
8 ــ محمد المهدي الحجوي، حياة الحسن الوزان وآثاره، سنة 1933.
9 ــ سعيد حجي، سلسلة مقالات في مجلة المغرب، ديسمبر 1934، يناير ــ ابريل 1935.
10 ــ ج. كولان، تعليق على كتاب حياةالحسن الوزان وآثاره، هيسبريس، 1935، ص 94-98.
11 ــ ك. بروكلمان، ملحق، سنة 1937، 710:2 (وذكر بعض مراجع ترجمته).
12 ــ ريمون موني، الأسفار العظيمة لليون الافريقي، هيسبريس جزء 41، سنة 1945، ص 379-394.
13 ــ ايبولار مقدمة الترجمة الفرنسية لكتاب وصف افريقيا، سنة 1956، ص 5-11.
14 ــ اغناطيسون كرا تيدكوفسكي، الأدب الجغرافي عند العرب، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، سنة 1957 القسم الأول ص 450-455.
15 ــ محمد داود، تاريخ تطوان، 87:1، هامش 1. سنة 1957.

يقدرونه حق قدره ويستفيدون من تأليفه الجغرافي في عصر النهضة، بل يعتمدونه كمصدر أساسي عن افريقيا طوال العصر الحديث. أما العرب المسلمون فلم يعرفوا عالمهم الوزان ولم يعرفوا به وأغفلوا كتابه القيم في زوايا النسيان.

□ في البيئة الإسلامية:

ينتسب الحسن بن محمد الوزان إلى قبيلة بني زيات الزناتية، الواقع موطنها في أقصى غرب بلاد غمارة من سلسلة جبال الريف المغربية، بين ساحل البحر المتوسط ومجرى وادي لاو القريب من مدينتي شفشاون

= 16 ـ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، 292:3. سنة 1957.

17 ـ أحمد أبو سعيد، **كتاب أدب الرحلات**، سنة 1961.

18 ـ الدومييلي، **العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي**، ترجمة عبد الحليم النجار وآخر، سنة 1962، ص 532-531 و 539-537.

19 ـ محمد عبد الله عنان، **الحسن الوزان أوليون الافريقي**، مجلة العربي سنة 1962، عدد 43.

20 ـ نجيب العقيقي، **المستشرقون**، 137-136:1، سنة 1964.

21 ـ محمد المختار السوسي، **إيليغ قديماً وحديثاً**، ص 210، هامش 443، سنة 1966.

22 ـ محمد عبد الله عنان، **شخصية الحسن الوزان الغرناطي**، محاضرة بالفرنسية في جنيف سنة 1967. (جريدة العلم الرباطية، 21 أبريل 1967).

23 ـ بوفيل، **الممالك الاسلامية في غرب افريقيا**، ترجمة د. زاهر رياض ص 171-157. القاهرة 1968.

24 ـ عبد القادر زمامة، **ليون الافريقي**، مجلة اللقاء، العدد 10، ص 117-115، يناير 1969.

25 ـ مصطفى مسعود، **الحسن بن محمد الوزان**، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم، سنة 1970.

26 ـ شوكت الشطي، **نظرات الى ثقافة العرب الطبية في الحضارة الأندلسية**، سنة 1972.

27 ـ جمال زكريا قاسم، **الحسن الوزان رحالة عربي ومصنف فرنجي**، مجلة العربي، يونية 1972.

28 ـ عبد الهادي التازي، **جامعة القرويين**، 507:2. سنة 1973.

29 ـ شوقي عطا الله الجمل، محمد الحسن الوزان، **مجلة المناهل**، مارس 1975.

30 ـ محمد حجي، **الحياة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، سنة 1977. 26-23:1 و 349-348:2.

31 ـ محمد أحمد زوام، **الحسن الوزان** ـ رسالة ماجستير ـ مخطوط بمعهد الدراسات الافريقية بالقاهرة، 1398.

وتطوان. عاشت أسرته حقباً من الزمن في الفردوس المفقود، وولد هو بمدينة غرناطة قبيل سقوطها في يد الاسبانيين. ويختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته، فيجعلها بعضهم عام 1495/901، وبعضهم عام 1500/906، أخذا من تاريخين وردا في كتاب **وصف افريقيا** استطرد المؤلف بعدهما ذكر سنه عن طريق الربط والمقارنة. ولا يستقيم كلا التقديرين عادة، لأنه يلزم منهما أن الحسن الوزان دخل الحياة العامة عدلاً وسفيراً في سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة، لذلك نرجح ما ذهب إليه غير واحد من أن الوزان ولد حوالي عام 888/ 1483 أي قبل سقوط غرناطة بنحو عشر سنوات، وانتقل مع أسرته صغيراً إلى فاس حيث درس على أعلام القرويين الكثيرين وعلى رأسهم آنذاك الإمام محمد بن غازي المكناسي الذي يفترض أن الوزان قرأ عليه بعض الكتب التي اشتمل عليها فهرسه المعنون بـ **التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد**، هذا الفهرس الذي كان ابن غازي يجيز به تلاميذه، ويحتوي على علوم اللغة وآدابها، والعقائد والفقه والتصوف، والتفسير والقراءات والحديث والسير والحساب والفلك والمنطق ربما إلى ذلك من العلوم المعروفة عند المسلمين. ويؤكد هذا الافتراض ما نقف عليه استطراداً في كتاب **وصف افريقيا**، إذ نجد المؤلف يستهل حياته العلمية بالانتصاب للشهادة مع عدول فاس الرسميين، ثم نجده يجالس الفقهاء والقضاة في المدن والقرى التي يزورها خلال رحلاته العديدة، يناظرهم ويناقشهم في نوازل فقهية وفتاوي دقيقة. وهو إلى ذلك كاتب شاعر يحبر الرسائل وينظم القصائد فيكون محط اعجاب الرؤساء وينال من عطاياهم، وحيسوبي ماهر يستخلص واجبات بيت المال من القبائل.

هذا النبوغ المبكر للحسن الوزان لفت إليه نظر سلطان فاس محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي فقربه إليه ونظمه في سلك رجال بلاطه، وأسند إليه ــ على حداثة سنه ــ مهام سياسية خطيرة في ظرف كان المغرب خلاله يشكو علة التقسيم إلى مملكتين في الشمال والجنوب، وإمارات

مستقلة في الجهات النائية، واحتلال برتغالي ـ اسباني لعدد من الثغور المغربية على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطيقي.

هذه المهام السياسية المسندة إلى الحسن الوزان، بالاضافة إلى النشاط الديبلوماسي والتجاري لأسرته، هي التي دفعته إلى القيام برحلات عديدة داخل المغرب وخارجه وتسجيل مشاهداته في مذكرات شبه يوميات غدت على مايظهر أساس كتابه الجغرافي الذي سنتحدث عنه فيما بعد. أشار الوزان إشارة عابرة إلى رحلات صحب فيها وهو صغير أباه إلى اقليم جبال الريف والأطلس المتوسط، وكان أبوه مكلفاً من قبل السلطان بجمع ضرائب هذه المنطقة. كما أشار إلى رحلة أخرى طويلة زار أثناءها بلاد مصر والجزيرة العربية والعراق وفارس وأرمينيا والتتار. قائلاً عنها: تلك البلاد التي رأيتها وقطعتها في صغري.

أما الرحلات التي فصل القول فيها في **وصف افريقيا** وكانت مادة هذا الكتاب فهي تسع:

1 ـ **رحلة إلى الشواطىء الغربية القريبة من فاس**، حيث حضر محاصرة الوطاسيين لمدينة أصيلا المحتلة من طرف البرتغاليين، عام 1508/914، ثم زار منطقة سلا في آخر السنة نفسها.

2 ـ **رحلة إلى وسط المغرب**، حيث زار منطقة تادلا، ومدينة تفزا بعد أن خضعت لحكم الوطاسيين. وتعرف في هذه الرحلة على الشريف السعدي محمد القائم بأمر الله الذي بويع في الجنوب أميراً للجهاد، عام 1509/915. وكانت العلاقات آنذاك طيبة بين مملكة فاس وإمارة السعديين الناشئة، لاتحاد وجهة نظرهما في ضرورة التعاون لمناهضة المسيحيين المحتلين، لا سيما في المناطق النائية عن فاس التي لا تصل إليها كتائب الجهاد الوطاسية. وسيتردد الحسن الوزان على هذه المنطقة الحساسة أكثر من مرة ليقوم بأدوار سياسية باسم كل من الملك الوطاسي والأمير السعدي في محاولة لاسترجاع أحد الرؤساء المحليين المنحرفين، وهو يحيى بن تعففت الذي انبسط نفوذه على بلاد عبدة

ودكالة وطرف من تادلا تحت حماية البرتغاليين الذين كانوا يزودونه بالمال والعتاد، وأصبحوا من ورائه يهددون داخل البلاد حتى وصل فرسانهم إلى أسوار مراكش، بعد أن كان الاحتلال المسيحي لا يتجاوز سيف البحر. وإذا كان اتصال الحسن الوزان بيحيى ابن تعففت لم يسفر عن نتيجة ايجابية، ولم يحقق صرف هذا القائد الضال عن محالفة العدو المسيحي، فإنها كانت فرصة لصاحبنا أن يجوس خلال الديار المحتلة ويتعرف على ناحية أسفي وعبدة. وسيقضي السعديون بعد سنوات على يحيى وحلفائه في معركة فاصلة.

3 ــ **رحلة إلى بلاد السودان**، صحب فيها عمه الذي كان مكلفاً عام 1511/917 بسفارة بين ملك فاس محمد الوطاسي البرتغالي وملك سنغاي محمد أسكيا الكبير، وقد سلكوا في الذهاب الطريق الغربي عبر مراكش ودرعة، وأخذوا في الرجوع طريق سجلماسة ــ فاس.

4 ــ **رحلة إلى الأطلس الكبير**، حين كلف عام 1513-12/918 بمهمة سياسية لدى القبائل الساكنة في جبال دادس وما حواليها. فتجول في هذه المنطقة سبعة أشهر ولم يرجع إلى فاس إلا في أواخر السنة.

5 ــ **رحلة أخرى إلى بلاد حاحا في السنة التالية**، 1514/919 كلف أثناءها بالاتصال بالأمير السعدي محمد القائم بأمر الله الذي بايعته آنذاك قبائل المنطقة وأخذ سلطانه يشمل حتى سفوح الأطلس الغربية والشمالية. ويبدو أن الوزان وفق في مهمته السياسية هذه فثبت الود والتعاون بين الامارتين أو المملكتين في الشمال والجنوب، وتمكن من زيارة منطقة أخرى لم يكن يعرفها، إذ كان لقاؤه بالشريف السعدي في مدينة تسكدلت، وصحبه من هناك إلى مدينة تكاووست في وسط سوس ثم تركه ورجع عن طريق دكالة، فحضر معركة بولعوان بين المغاربة والبرتغاليين قبل أن يلتحق بمراكش.

6 ــ **رحلة من مراكش إلى سوس عبر ممر أمزميز عام 1515/920**، حيث اخترق جبال الأطلس ليلتقي بالشريف السعدي. ولعل زيارة مراكش

هذه كانت بايعاز من الشريف لربط الصلات مع الأمير الناصر الهنتاني الذي كان مستبداً بمنطقة مراكش سهلاً وجبلاً. وإذا صح هذا الافتراض فإن رحلة الوزان كانت أيضاً موفقة سياسياً لأنه لن تمضي سنوات حتى تنضم مراكش إلى السعديين، مثلما كانت موفقة علمياً حيث اطلع على جغرافية المنطقة وتعرف على جبالها وقراها وسكانها.

7 ـ **رحلة إلى الحجاز في أواخر عام 1516/921**، سلك فيها مع ركب الحجاج الفاسيين الطريق الشمالية عبر مدن تازا فدبدو فتلمسان فتونس.

8 ـ **رحلة إلى الأستانة**، خرج إليها بعد أداء فريضة الحج للقاء السلطان سليم الأول سفيراً لديه من قبل ملك فاس محمد الوطاسي البرتغالي. غير أن سليمًا كان قد خرج في حركته العسكرية الكبرى للاستيلاء على بلاد الشام ومصر، فلحق به الوزان هناك وحضر معه المعارك العنيفة التي انتهت يوم 21 ربيع الأول 13/923 أبريل 1517 بالقضاء على مقاومة المماليك في مصر. ومكث في زيارة بلاد الكنانة بضعة أشهر إلى أن خرج السلطان سليم من الاسكندرية، فصعد هو مع النيل إلى السودان وتجول فيه قبل أن يبحر إلى جدة ويزور الينبوع. وقد استغرق في ذلك بقية عام 923.

9 ـ **الانتقال إلى البلاد الليبية والتونسية في طريق الرجوع إلى المغرب.** ويبدو أن الحسن الوزان مكث هناك حوالي سنتين، إذ نجده في عام 1520/926 يبحر من تونس ليعود إلى المغرب، لكن سوء الحظ أوقعه في أيدي القراصنة الايطاليين فأسروه بالقرب من جزيرة جربة، وأخذوه إلى نابولي ثم قدموه هدية إلى البابا في روما.

☐ في البيئة المسيحية:

من المعروف أن البابا ليون العاشر (Léon X, Jean de Médicis) من باباوات عصر النهضة الذين عملوا على إحياء العلوم والآداب والفنون.

لذلك سر بهذا العالم العربي الشاب الذي قدم إليه، وسرعان ما وثقت الصلة بينهما، لا صلة سيد بأسير ولكن صلة قريب بقريب كان ينشد ضالّة فعثر عليها. ولعل من أسباب هذا التقارب والتجاوب ذكاء الحسن الوزان وسرعة تأقلمه مع البيئة المسيحية، فهو موريسكي فتح عينه في غرناطة التي كانت اللغة القشتالية الوثيقة الصلة باللاتينية منتشرة فيها، والكنائس بأساقفتها وطقوسها منبثة في جوانبها. ولا نظن الوزان إلا أنه كان يتفاهم مع البابا بلغة عجمية ويقدر ظروف أسره تقديراً موضوعياً، مدركاً أنه لا يمكن أن يعيش عيشة إسلامية في بؤرة المسيحية، فتظاهر بالتمسح وحمل اسم مالكه وحاميه البابا فصار يدعى (J. Léon) أو يوحنا الأسد الغرناطي أو الافريقي، تستراً وعملاً بقول الله تعالى: **﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّه مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَن أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ﴾**.

ولنا أكثر من دليل على استمرار إسلام الحسن الوزان وثبات عقيدته طوال السنين الثلاثين التي قضاها أسيراً في ايطاليا. من ذلك:

1 ــ الصبغة الإسلامية المتجلية في كتاب **وصف افريقيا** كلما تحدث المؤلف عن عادة أو عيد أو غير ذلك مما يخص المسلمين نسبه إلى نفسه مع جماعة المسلمين قائلاً «عندنا» وهذا كثير في الكتاب، بينما لم ينسب فيه لنفسه شيئاً مع المسيحيين بخصوص الطقوس الدينية ولو مرة واحدة. وإنما عبر بقوله (عندنا هنا في ايطاليا) عن بعض المزروعات وعادات الفلاحين وما إلى ذلك من الأمور الدنيوية العادية.

2 ــ اهتمام الكتاب بالملامح الإسلامية في المدن والقرى التي زارها المؤلف واعتزازه بالتعرف على حملة الشريعة الإسلامية من فقهاء وقضاة ومفتين، ولو أنه يحكي واقعاً حدث قبل انتقاله إلى البيئة المسيحية، إذ لو تنصر حقاً لاستنكف عن ذكر ذلك أو استهجنه على الأقل، وذلك ما لم يقع.

3 ــ التواريخ المذكورة في **وصف افريقيا** كلها هجرية إلا مرات قليلة جداً ورد فيها التاريخ الميلادي، وقد أحصى ماسينيون التواريخ المذكورة في القسم المتعلق بالمغرب الأقصى من كتاب **وصف افريقيا** فإذا هي 72 تاريخاً، منها 67 بالتاريخ الهجري و4 بالميلادي، وواحد مؤرخ بسنة طرد اليهود من اسبانيا على طريق التزامن التاريخي.

4 ــ تمسك المؤلف باسمه الإسلامي رغم مرور سنين عديدة على أسره وتداول اسمه المسيحي، فهو حينما يوقع في نابولي أو روما أحد كتبه يقول: «العبد الفقير إلى **الله** مؤلفه يوحنا الأسد الغرناطي المدعو قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسي». وماذا يا ترى يمكن لأسير في مثل ظروفه أن يفعل أكثر من ذلك للتعبير عن حنينه إلى ماضيه الإسلامي. بل نلاحظ أن نسبه «الغرناطي» يأتي بعد اسمه المسيحي اعتباراً بأن غرناطة أصبحت آنذاك حاضرة مسيحية، وكأنه أرغم على ذلك أو اصطنعه تستراً وتقية، في حين تأتي النسبة القديمة إلى فاس مع اسمه الإسلامي تذكيراً وتشبثاً بالوسط الإسلامي الخالد.

أما النشاط الثقافي للحسن الوزان في ايطاليا فيتمثل في تدريس اللغة العربية للخاصة من رجال الكنيسة في روما ونابولي ولعامة الطلبة في مدرسة بولونيا الشهيرة في عصر النهضة الأوروبية، كما يتمثل فيما كتب من مؤلفات باللغة الايطالية أو اللاتينية في التاريخ والجغرافيا واللغة، وتتصل موضوعاتها اتصالاً وثيقاً بالمسلمين وبلادهم ولسانهم. ومؤلفات الوزان صنفان، صنف سلم من الضياع فوصل إلينا كاملاً أو ناقصاً، وصنف عفى عليه الزمان فلم نعرف عنه غير الاسم وما استطرد منه المؤلف عرضاً من اشارات في كتبه التي وصلت إلينا.

من المؤلفات الباقية:

1 ـ **معجم عربي ـ عبري لاتيني** ألفه الوزان للطبيب اليهودي يعقوب بن شمعون وانتهى من تأليفه بمدينة بولونيا كما ذكر ذلك في آخر الكتاب. وهذا المعجم ما يزال مخطوطاً بمكتبة الاسكوريال باسبانيا.

2 ـ **كتاب في التراجم**، باللاتينية عرف فيه بثلاثين شخصية بارزة من فلاسفة العرب وأطبائهم، انتهى من تأليفه عام 1527/933، ونشر في زوريخ سنة 1664.

3 ـ **الجغرافية العامة**، كتاب ضخم باللغة العربية اطلع عليه بعض مترجميه القدامى إلا أنه ضاع ولم يبق منه غير القسم الثالث الذي ترجمه الحسن الوزان نفسه إلى اللغة الايطالية، أو اعتمد عليه في كتابه **وصف افريقيا** الذي سنتحدث عنه فيما بعد.

أما كتب الحسن الوزان الضائعة فيظهر أن بعضها كتب في بلاد الإسلام، وبعضها الآخر في ايطاليا، منها:

(أ) **مختصر تاريخ الإسلام** الذي أحال عليه كثيراً في **وصف افريقيا** كلما أراد تفادي ذكر تفاصيل الأحداث التاريخية التي تعرض لها.

(ب) **أشعار الأضرحة**، كتاب جمع فيه مختلف أشعار الوعظ والزهد مما وجده مكتوباً على الأضرحة والقبور في أقطار المغرب التي زارها، وقال عنه: «انه يقع في سفر صغير جمعته وأهديته لأخ السلطان الحالي عند وفاة أبيه» مشيراً ولا شك إلى أحد أبناء السلطان محمد الشيخ الوطاسي المتوفى عام 1505/910.

(ج) **كتاب في الفقه المالكي** أشار إليه كذلك في **وصف افريقيا**، كما أشار إلى مؤلفات أخرى في الأعياد الإسلامية، وقواعد اللغة العربية، والشعر.

أما تقلبات الحسن الوزان في ايطاليا، فإننا نعلم أنه انتقل بعد موت البابا ليون العاشر سنة 1521 ليعيش في كنف الكردينال جيل دي فيطيرب (Gilles de Viterbe) فكان يعلمه اللغة العربية، وكان هذا الكردينال معجباً كثيراً بالحسن الوزان ويأمل أن ينشر بواسطته اللغة العربية وآدابها في ايطاليا ليتمكن الأوروبيون — وهم في عصر النهضة — من الاطلاع المباشر والاستفادة الكاملة من كتب العرب في الفلسفة والطب والفلك والكيمياء وغيرها. وقد استدعى الكردينال جيل في آخر حياته أحد أصدقائه النبلاء من حاشية الامبراطور شارلكان في بولونيا، وهو جان ألبير ويدمانسطار (J.A. Widmanstard) استدعاه إلى روما ليرى يوحنا الأسد. وكأن الكردينال كان يريد أن يكل أمر هذا الأسير العربي العالم إلى ذلك النبيل المسيحي ليكفله إذا مات كما فعل هو بمؤلفنا بعد موت البابا ليون العاشر. وقبل أن يصل ويدمانسطار إلى روما اختفى منها الحسن الوزان في ظروف غامضة حوالي عام 1550/957، والتحق بأقرب نقطة إليه في بلاد الإسلام وهي تونس، حيث عاد إلى حياته الإسلامية الأولى.

وقد كتب وديمانسطار في مقدمة الانجيل الذي طبعه سنة 1555 أنه لبى دعوة الكردينال جيل، فزار روما وافريقية ليتصل بيوحنا الأسد الذي كان قد ذهب إلى تونس ورجع إلى الديانة الإسلامية، لكن محاولة الاتصال هذه لم تكن ذات جدوى.

وهنا يسدل الستار على حياة الحسن الوزان، فلا ندري هل بقي في تونس أم عاد إلى أهله في فاس، ولا نستطيع تحديد تاريخ ومكان وفاته إلا أن نقارب ونقول إنّه مات بعد عام 1550/957.

(ب) كتاب وصف إفريقيا:

يمثل هذا الكتاب، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، القسم الثالث من كتاب **الجغرافيا العامة**، الذي ألفه الحسن الوزان باللغة العربية. ثم

ترجم المؤلف هذا القسم إلى اللغة الايطالية، أو اعتمد عليه في انشاء **وصف افريقيا** بالايطالية انشاء، وأتمه عام 1526/933 بمدينة روما. وقد اعتذر المؤلف عما يمكن أن يقع في كتابه من أخطاء خاصة عند النقل، بأنه قد مر عليه عندما ألف **وصف افريقيا** عشر سنين لم يطلع أثناءها على أي كتاب من كتب تاريخ افريقيا أو جغرافيتها. وإنما اعتمد على ما علق بذهنه مما رآه قبل هذه المدة الطويلة. وذلك ما يفسر خلو هذا الكتاب من نقول حرفية عكس ما هو الشأن عند غيره من الجغرافيين العرب. وأكثر ما ينقل الوزان عن ابن الرقيق[1] القيرواني وعبد الرحمان ابن خلدون، ولو أنه ذكر عشرات المؤلفين العرب كالبكري، والشريف الادريسي، وابن فضل الله العمري واضرابهم. ومع ذلك يبقى معظم مادة الكتاب من مشاهدات المؤلف وخبراته الشخصية.

قسم الوزان كتابه **وصف افريقيا** إلى تسعة أقسام أو كتب. في القسم الأول تدقيقات تتعلق بجغرافية افريقيا العامة، ومناخها وخصائص شعوبها وأخلاقهم. وقد جزأ فيه افريقيا تجزيئاً عمودياً باعتبار مميزاتها النباتية والاقتصادية أربعة أجزاء:

(أ) بلاد البربر شمال سلسلة جبال الأطلس الممتدة من تخوم مصر شرقاً إلى المحيط الأطلنطيكي غرباً.

(ب) بلاد الجريد جنوبي جبال الأطلس التي كان الرومان يطلقون عليها نوميديا.

(ج) الصحراء الكبرى المترامية بعد بلاد الجريد.

(د) بلاد السودان الواقعة وراء الصحراء.

ثم قسم كل جزء من هذه الأجزاء الأربعة إلى عدة أقسام اعتباراً لاختلاف نظم الحكم فيها أكثر من اعتبار الفوارق الطبيعية، مبيناً ــ كما قال ــ «المدن والجبال والمواقع والقوانين والعوائد دون إهمال شيء

مما يستحق أن يعرف». ونذكر على سبيل المثال أقسام الجزء الأعلى من افريقيا الذي سماه بلاد البربر تقليداً للرومان، ونسميه اليوم شمال افريقيا أو المغرب الكبير. لقد كان هذا الجزء في مطلع القرن الهجري العاشر يشتمل على أربع ممالك:

1 ــ مملكة مراكش المحتوية بدورها على سبعة أقاليم: حاحا، وسوس، ومراكش، وجزولة، ودكالة، وهسكورة، وتادلا.

2 ــ مملكة فاس المحتوية هي أيضاً على نفس العدد من الأقاليم: تامسنا، وفاس، وأزغار، والهبط، وكرط، والحوز.

3 ــ مملكة تلمسان المشتملة على ثلاثة أقاليم: الجبال، وتنس، والجزائر.

4 ــ مملكة تونس التي تخضع لها أربعة أقاليم: بجاية، وقسنطينة، وطرابلس الغرب، والزاب.

وذكر الوزان أن إقليم بجاية كان موضوع نزاع مستمر، يتبع تارة سلطة ملك تونس وتارة أخرى سلطة ملك تلمسان «إلى أن أصبح في أيامنا هذه ــ يقول المؤلف ــ مملكة مستقلة استولى على عاصمتها الكونت بيير نافارو باسم ملك اسبانيا فرديناند».

ويلاحظ هنا أن الحسن الوزان لم يذكر في هذا القسم من ثغور شمال افريقيا المحتلة من طرف المسيحيين غير بجاية ووهران والمرسى الكبير، وسكت عن العديد منها، خاصة في سواحل المغرب الأقصى الشمالية والغربية. كما يلاحظ أنه لم يولِ العناية الكافية للتحركات البحرية للأخوين التركيين عروج وخير الدين في الحوض الغربي للبحر المتوسط في نفس الفترة التي كان المؤلف يجوس خلال ديار شمال افريقيا، وكان من نتائج هذه التحركات تغيير الخريطة السياسية للمنطقة ولم تمر غير عقود قليلة

من السنين، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن أبناء المغرب العربي عميت على المؤلف في أسره أو صرفت عنه صرفاً.

أما الأقسام السبعة التالية من كتاب **وصف افريقيا** فتتناول بالتفصيل الأقسام الأربعة الأصلية لإفريقيا وأقاليمها الفرعية المذكورة إجمالاً فيما سبق، ثم فصلت انطلاقاً من الغرب إلى الشرق بالترتيب التالي: مملكة مراكش، مملكة فاس، مملكة تلمسان، مملكة بجاية وتونس. بلاد الجريد والصحراء، بلاد السودان، مصر.

ويعود المؤلف في القسم التاسع والأخير من الكتاب إلى ذكر الظواهر الجغرافية العامة لإفريقيا فيبين أنهارها وحيوانها ونباتها، ويظهر هنا أيضاً تغليب جانب المغرب الأقصى لا لشيء إلاّ لأن المؤلف عرفه أكثر من غيره وخبر سهوله وجباله ووديانه في رحلاته العديدة التي أشرنا إليها آنفاً. فهو مثلاً لا يكتفي بالتعريف بالأنهار المغربية الكبرى كأم الربيع وملوية وسبو ودرعة،وإنما يعرف أيضاً بالأنهار الصغرى كتنسيفت وأبي رقراق وبهت، وسوس، بينما اكتفى في غير المغرب بالأنهار الكبرى التي تعرف عليها كالنيجروالنيل وتافنة وشلف.

ثم ذكر حيوانات افريقيا الكبرى كالفيل والأسد والزرافة والجمل والأبقار والخيول المختلفة دون أن يغفل الحيوانات الصغرى أيضاً كالغنم والماعز والقرود والأرانب وقطاط الزباد.

ولما تعرض للحيوانات المائية اهتم بالضخمة منها كسمك العنبر وفرس البحر وثور البحر، والتمساح، وما إلى ذلك مما يوجد في النهرين العظيمين النيجر والنيل، ثم استعرض أشهر الطيور الإفريقية في الأقاليم المختلفة، كالنعامة، والنسر والباز والخفاش والببغاء. وذكر بعض معادن افريقيا كالملح والكحل، بالإضافة إلى ما سبق ذكره من معادن الفضة

والذهب والنحاس وغيرها، وأشار إلى نباتات تستخرج منها مواد صناعية كالصمغ والقطران، وإلى بعض الفواكه كالموز والترفاس والتمر والجميز.

□ مزايا الكتاب ومآخذه:

لعل من أبرز مزايا كتاب **وصف افريقيا** الذهنية المتفتحة التي كتب بها، حتى قال عنه بعض النقّاد الأوربيين انه تأليف عربي بتفكير أوربي أو في إطار مصطبغ بالصبغة الأوروبية. وقد استفاد الحسن الوزان من عمله الإداري وصلته ببلاطي الوطاسيين والسعديين في تحديد عباراته عندما كتب عن القبائل المغربية فأتى بإحصاءات شبه مدققة مبنية على عدد الكوانين في المدن والقرى، وبالتقسيمات السياسية في مختلف الجهات، وبمبالغ الخراج التي يستخلصها بيت المال.

وإذا تحدث المؤلف عن أماكن زارها في أية جهة من جهات افريقيا بين المسافات الفاصلة بالأميال لا بالدرجات الفلكية المعقدة الشائعة عند غيره، ولم تقصر همته عن زيارة التجمعات السكنية المنحرفة عن الطرق الكبرى فأوغل في المسارب والمضايق لاستكمال النظرة الشاملة على الناحية التي يزورها، حتى إذا عجز عن الوصول إلى بعض المواقع النائية جداً كالممالك السودانية الموغلة في الجنوب، بحث عن أهلها أو عمن يعرفها من غيرهم مستكشفاً أحوالها ومتثبتاً في ذلك غاية التثبت، ثم ذكر مصادر روايته مفرقاً بين ما رآه بنفسه وما حكي له.

يضاف إلى ذلك نزاهة المؤلف وحياده التام في كل ما كتب غير متأثر بعاطفة قرابة أو دين أو وطن، تجده يمدح مكاناً وقوماً في جهة، ويذم نظيرهما في جهة أخرى تبعاً لما شاهد وعرف. فالأرض هناك طيبة تنبت من كل زوج بهيج، وأهلها أوفياء كرماء، والنساء جميلات أنيقات عفيفات. وهنالك أرض مجدبة موحشة تكثر فيها البراغيث أو تفوح من بيوتها

الروائح الكريهة، ويسكنها لصوص فتاكون أو أشقياء حفاة عراة، ونساء قبيحات أو فاجرات.

غير أن تلك المزايا على كثرتها لم تعصم المؤلف من الوقوع في هفوات جغرافية وتاريخية صارخة، ولو أن عذره بين بسبب غيبة المصادر عنه وبعد عهده بالأماكن التي تحدث عنها على افتراض أنها لم تكن مسجلة في مذكراته. من ذلك خطؤه في اتجاه مجرى نهر أم الربيع الذي ظنه يجري نحو الجنوب، واعتقاده أن نهر سوس يصب عند رباط ماسة، وخلطه في تقدير المسافات ببعض الأماكن، بل تناقضه مع نفسه أحياناً في أرقام يكررها مختلفة، كعدد الأميال الفاصلة بين مدن فاس والقصر الكبير وأصيلا والبصرة.

وقد استقرأ ماسينيون التواريخ الهجرية المذكورة في الأقسام المغربية التي تهمه من كتاب الوزان، فوجدها 67 تاريخاً، 52 منها صحيحة بالمقارنة مع مقابلها من التاريخ الميلادي عند المؤرخين البرتغاليين المعاصرين له، و 6 تواريخ تقريبية، و 9 مغلوطة إذا اعتبرنا تواريخ البرتغاليين صحيحة سليمة. واشتبهت على الوزان كذلك أحداث تاريخية تعرض لها، فحرف مثلاً أخبار البرغواطيين وخلط أمر المتنبئين صالح بن طريف البرغواطي وحاميم الغماري على بعد المسافة الفاصلة بينهما زماناً ومكاناً، فالأول تمرَّد بتامسنا وسط المغرب في القرن الثاني للهجرة، والثاني ثار بأقصى الشمال في القرن الرابع للهجرة، وتاريخهما مفصل عند ابن خلدون في **كتاب العبر** الذي قرأه الوزان، وخانته ذاكرته.

وفي **وصف إفريقيا** أخطاء أخرى أخطر من الأولى، إلَّا أن صاحبنا بريء من تبعتها، وهي تحريف عدد كثير من الأعلام الجغرافية والتاريخية بسبب عملية نقل الحروف العربية وتكييفها بالحروف اللاتينية. وقد تتبع ماسينيون عملية النقل عند الوزان فوجدها سليمة، لأنه اختار طريقة معقولة والتزمها في كل عمليات النقل والتكييف. لكن راميزيو ناشر كتاب

وصف افريقيا أخطأ في قراءة كثير من الأعلام العربية فحرَّفها وأفسدها من حيث أراد إصلاحها. وبذلك بقيت عشرات الأعلام مشوشة مجهولة وأمكن التعرف على أخرى بجهد ومشقة عن طريق الحدس والاستنتاج أو المقارنة مع ما ذكره مؤلفون آخرون.

إن تلك الهفوات لم تصرف الأوربيين عن كتاب **وصف افريقيا** ولا نقصت من قيمته لديهم، بل أقبلوا على تدارسه والنقل عنه في مؤلفاتهم. وكذلك كان أكثر المستفيدين منه الخرائطيون فصححوا بواسطته ما رسم قبله من خرائط ووضعوا أخرى جديدة بحسب ما فيه من مسالك ومسافات وتضاريس، فكانت أقرب إلى الخرائط العلمية المطابقة للواقع. وان صحة المعلومات الواردة في الكتاب، بغض النظر عن الهفوات، لمشاهدة إلى الآن في الأشياء الثابتة، وحتى في المدن التقليدية التي لم تتعرض لكبير تغيير في القرون الأربعة الأخيرة، كمدينة فاس التي يمكن للإنسان أن يتجوّل فيها اليوم اعتماداً على ما كتبه الوزان فيزور المساجد والمدارس والكتاتيب والأسواق والفنادق والأراحي حيث ذكرت في الكتاب، ويشاهد الفقهاء والعدول والصناع والتجار والحمالين يتحركون نفس التحركات.

وإن أعدل شاهد على تقدير علماء أوربا لكتاب الحسن الوزان لهو إقبالهم عليه بالنشر والشرح والنقل إلى لغاتهم اللاتينية والانكلوساكسونية، من لدن عصر المؤلف إلى أيامنا هذه. فقد نشر **وصف افريقيا** لأول مرة العالم الإيطالي راميزيو سنة 1550 بمدينة البندقية، اعتماداً على مخطوط المؤلف باللغة الإيطالية ولو أنه جنى عليه بالتصرف في نصه زيادة ونقصاً وتغييراً ليجعله سهل القراءة ـــ كما قال ـــ. ونفدت هذه الطبعة بعد أربع سنوات، فأعيد نشره، وتجددت بعد ذلك هذه الطبعة أكثر من ست مرات أخر. وقد ترجم فلوريان (Florian) **وصف افريقيا** إلى اللغة اللاتينية ترجمة رديئة، اعتماداً على الطبعة الإيطالية الثانية، ونشر في بلجيكا سنة

1556 ثم أعيد نشره فيها بعد سنتين، ونشر مرة ثالثة في زيوريخ بعد سنة أخرى، ورابعة في لايد سنة 1632.

وعلى هذه الترجمة اللاتينية اعتمدت الترجمة الهولندية المنشورة في أمستردام سنة 1665، والترجمة الانجليزية المنشورة في لندن سنة 1600، التي أعيد طبعها في سنة 1896 مع شروح كثيرة، بينما اعتمدت الترجمة الألمانية المنشورة في هيربورن سنة 1805 على الطبعة الإيطالية الأصلية. أما أول ترجمة فرنسية لوصف افريقيا فهي لطمبورال (J. Temporal) اعتمد فيها الطبعتين الإيطاليتين الأوليين، ونشرت مرتين سنة 1556 (؟) في كل من ليون بفرنسا وأنفير ببلجيكا وأعيد نشرها في لايد سنة 1564، وفي باريز سنة 1830 ثم سنة 1896 بتحقيق وتحليل شفير (Schefer) في ثلاثة أجزاء. ولما كانت الترجمة مكتوبة بفرنسية القرن السادس عشر التي أصبحت الآن شبه مغلقة على عموم القراء، فإن الطبيب الفرنسي إيبولار (A. Epaulard) قام سنة 1949 بترجمة فرنسية حديثة لكتاب **وصف افريقيا**، نشرها معهد الدراسات العليا بالرباط سنة 1956 في جزئين، وهي الترجمة التي اعتمدناها في نقل هذا الكتاب وإرجاعه إلى أصله العربي.

(ج) عملنا في الترجمة:

الترجمة الفرنسية التي اعتمدناها اشترك في التعليق عليها إيبولار نفسه، وثمونو، وهـ. لوط، ور. موني. وإذا كنا قد التزمنا نقل النص الفرنسي بحذافيره إلى العربية، فإننا لم نلتزم بترجمة التعليقات لما لنا عليها من ملاحظات، لا سيما فيما يتعلق بالتاريخ، فأهملنا الكثير منها، وأثبتنا بعضها كاملة أو مختصرة أو استبدلنا بها أخرى متى رأينا ذلك مناسباً، دون أن نشير إلى الاختصار أو الحذف أو الزيادة.

واجتنبنا التكرار الكثير الموجود في هوامش الترجمة الفرنسية التي لا تترك كلمة «ميل» تمر إلاّ وذكرت ما يساويها من الكيلومترات، ولا تاريخاً

هجرياً عند المؤلف إلّا أوردت موافقه من التاريخ الميلادي، تركنا ذلك اعتماداً على ما أثبتناه في التنبيه العام الذي يلي هذه المقدمة، وعلى قاعدة الموافقة المشهورة وجداول المطابقة المعروفة بين التاريخين الهجري والميلادي. كما أنا لم نر فائدة في التعليق على أسماء المساحات والأوزان والمكاييل كالذراع والقدم وحمل الدابة وما أشبه ذلك كلما ورد ذكرها في الكتاب، بل رأينا في بعض تلك التعليقات تكلفاً ظاهراً كتقييد الذراع المطلق عند المؤلف بالذراع الروماني. ولماذا لا يكون الذراع الهاشمي أو العربي عموماً أو الإفريقي ما دام المؤلف عربياً يستعمل أساساً المصطلحات العربية كالتاريخ الهجري مثلاً؟ على أن الأمر سهل لا يحتاج إلى كل هذا التأويل والتمحل، إذ الأذرع متقاربة، العربية منها والعجمية، ويفهم القارىء بأية لغة المسافة المرادة بالذراع أو القدم أو الشبر على سبيل التقريب. على أن مسألة تحديد الأوزان والمكاييل والنقود في عصر المؤلف تبقى مطروحة، لا ينهض بها إلّا المختصون.

ولما كانت محنة كتاب «وصف إفريقيا» الكبرى تتمثل في أن الأعلام الجغرافية والتاريخية فيه عربية الأصل أو إفريقية نقلت نقلاً غير سليم إلى الإيطالية أو اللاتينية ثم إلى الإيطالية ثم إلى الفرنسية الخ، وفقدت في كل مرحلة من هذه المراحل جزءاً من شكلها ومفهومها حتى غدت رموزاً مغلقة لا يهتدى إلى حلها، لولا الجهود المشكورة للعالم لوي ماسينيون الذي تنزل لها بأناة وصبر وحل معظم تلك الرموز، فإننا لم نر من الفائدة ولا من الأمانة العلمية أن نترك تلك الأعلام محرفة كما جاءت في الأصل المنقول عنه لننبه في الهامش على الحقيقة كما هو الحال في الترجمة الفرنسية، وإنما أثبتناها مباشرة في صلب الكتاب على ما نجزم أو نظن أنه الصواب.

وقد اجتهدنا في الترجمة أحياناً حتى ليظن البعض أننا حرفنا عدداً من المفاهيم، وما ذلك منا إلّا نتيجة لاستقراء استعمال المؤلف لبعض الكلمات

أو لاعتبار الظروف التاريخية والاجتماعية التى أُلِّف فيها الكتاب، مثل كلمتي غرناطة والغرناطي اللتين ترجمناهما في الغالب بالأندلس والأندلسي. ذلك أن المتأخرين من الأندلسيين، لا سيما الذين عاشوا في مملكة غرناطة الضيقة ثم غادروها بعد سقوطها، لم يكن في تصورهم أن بلاد الإسلام في شبه جزيرة إيبريا تعدو غرناطة، ومن ثم كان المهاجرون إلى العدوة المغربية في نظرهم غرناطيين. وكذلك ترجمنا كلمة (Feu) بالكانون نظراً للاصطلاح المشهور عندنا في البادية حتى الآن، واعتباراً للمصطلح الرسمي الثابت في وثائق القرن العاشر الهجري، حيث كانت عملية إحصاء القبائل تجري بحسب الكوانين أو السروج لفرض عدد من الفرسان في الحروب، أو الخراج السنوي لبيت المال.

هذا، ولا نزعم لأنفسنا الكمال أو القرب منه، فإن مجرد الإقدام على النقل عن نقل بعيد عن الأصل بعدة وسائط يعد جرأة ومخاطرة، غير أنه لم يكن بد من رجوع هذا الأثر العلمي إلى أصله العربي، بالرغم على النقص والغموض، وقديماً قالوا ما لا يدرك كله لا يترك كله.

الرباط، في 23 ربيع الأول عام 1398
3 مارس 1978.

المترجمان

تنبيـــه

ـــ **الميل**: (ألفا ذراع عند العرب، وألف خطوة عند الرومان) يساوي نحو 1.340 ميتر

ـــ **الذراع** (الروماني أو الهاشمي الخ) يساوي نحو .... 67 سنتيميتر

ـــ **القدم** .... 33 سنتيميتر

ـــ **الشبر** .... 23 سنتيميتر

ـــ **الرطل الإيطالي** (Livre) يساوي نحو .... 339 غرام

ـــ **الرطل المغربي أو الافريقي** كما يسمى في الكتاب .... 508 غرام

ـــ **القنطار الإيطالي** (مائة رطل) .... 33 كيلوغرام و900 غرام

ـــ **القنطار المغربي أو الافريقي** .... 50 كيلوغرام و 800 غرام

ـــ **حمل الجمل** .... 237 كيلوغرام

ـــ **البطة** (Botta) كيل إيطالي قدره .... 938 ليتر، و465 سنتيليتر

ـــ **الأونس** (Once) الإيطالي ترجمناه بأوقية، ويزن بالتقريب 28 غرام و 256 سنتيغرام

ـــ **الدوكة** (Ducat) عملة إيطالية ذهبية ترجمناها بمثقال وكانت تزن في عصر المؤلف .... 3 غرام و 532 سنتيغرام

ـــ **المثقال السوسي**، أو الدينار الرائج آنذاك، يزن بالتقريب 3 غرام و853 سنتيغرام

ملحوظتان:

1 ـــ اختلف الجغرافيون القدماء والمحدثون في مقدار الميل، فجعله بعضهم أربعة آلاف ذراع، وبعضهم ثلاثة آلاف ذراع، واخترنا المشهور الذي أخذ به ابن الحاجب ومن تبعه من الفقهاء المالكية وهو ألف ذراع، لأنه المتداول عند المؤلفين بفاس وسائر بلاد المغرب في عصر الحسن الوزان.

2 ـــ كل ما ذكرناه أعلاه إنما هو بالتقريب، وما زال تحديد الأوزان والعملات في كل من المغرب وإيطاليا على عهد المؤلف، بحاجة إلى مزيد من البحث والتدقيق.

القسم الأوّل

وصف إفريقيا وما فيها من أشياء تستحق الذكر

أصل تسمية إفريقيا

يسمى هذا القطر باللغة العربية إفريقيا، من الفعل فرق بمعنى فصل باللاتينية (Separavit) وهناك رأيان في أصل هذه التسمية، يعتمد الأول على كون هذا الجزء من المعمور مفصولاً عن أوربا وجزء من آسيا بالبحر المتوسط، ويذهب الرأي الثاني إلى أن هذا الاسم مشتق من افريقش ملك اليمن الذي كان أول من سكن هذه البلاد، فلما لم يستطع الرجوع إلى مملكته بعد أن غلبه الملوك الأشوريون وطردوه، اجتاز النيل مسرعاً، ثم تابع سيره نحو الغرب، ولم يقف حتى وصل إلى ضواحي قرطاج. لذلك نرى العرب لا يكادون يعتبرون إفريقيا سوى ضاحية قرطاج نفسها، بينما يطلقون اسم المغرب على سائر إفريقيا(1).

حدود إفريقيا

تحد افريقيا، حسب رأي العلماء الأفارقة والجغرافيين، بالنيل من

---

(1) لما استولى الرومان على قرطاج وخربوها أسسوا مكانها اقليمًا دعوه «بروفانسيا أفريكا» التي أصبحت افريقيا عند العرب، وكانت تطلق على بلاد تونس الحالية تقريباً. أما اسم المغرب فكانوا يطلقونه على جميع المناطق الواقعة بين العدوة اليسرى للنيل والبحر المحيط.

الناحية الشرقية ابتداء من روافد بحيرة كَـاوكَا(2) جنوباً إلى مصب هذا النهر في البحر المتوسط شمالاً. فتبتدىء افريقيا شمالاً من مصب النيل وتمتد غرباً إلى أعمدة هرقل، ثم تمتد غرباً من هذا المضيق إلى نون(3) الذي هو آخر أجزاء ليبيا على ساحل البحر المحيط. ومن ثم يبتدىء جنوب افريقيا ليمتد على طول البحر المحيط الذي يحيط بها كلها إلى صحراء كاوكة.

أقسام افريقيا

يقسم مؤلفونا افريقيا إلى أربعة أقسام، هي بلاد البربر، ونوميديا، وليبيا، وأرض السودان. تبتدىء بلاد البربر شرقاً من جبل مييس، آخر قمم الأطلس، على بعد نحو ثلثمائة ميل من الاسكندرية(4)، ويحدها شمالاً البحر المتوسط من جبل مييس إلى أعمدة هرقل، وتمتد غرباً من هذا المضيق إلى آخر قمم الأطلس على طول ساحل المحيط، أي إلى أقصى الجهة الغربية لهذه الجبال، حيث تقع مدينة ماسة، وتنتهي جنوباً قرب الأطلس، على السفوح المواجهة للبحر المتوسط. وهذا أشرف أقسام افريقيا، حيث يسكن أناس من الجنس الأبيض، ويحتكمون إلى العقل والقانون.

والقسم الثاني يسميه اللاتينيون نوميديا، ويدعوه العرب بلاد

---

(2) لا تعرف هذه البحيرة، لأن أعالي النيل لم تكن معروفة عند العرب في القرن السادس عشر.

(3) أطلق البحارة الأوربيون القدامى اسم رأس نون على أقصى نقطة من القارة وصلوا إليها في الجنوب، ولا شك أنهم كانوا ينطلقون من هذا الرأس إلى وادي نون الذي كان مأهولاً بالسكان وذا حركة تجارية نشيطة.

(4) كان الجغرافيون يعتبرون الأطلس سلسلة جبال متواصلة من ساحل البحر المحيط إلى العقبة الكبرى جنوبي خليج السلوم. وجبل مييس الذي يجعله الكاتب على بعد نحو 500 كيلوميتر من الاسكندرية لم يمكن التعرف عليه بعد.

الجريد، حيث ينبت النخيل(5). يبتدىء شرقاً بالواحات(6)، وهي مدينة تقع على بعد نحو مائة ميل من بلاد مصر، ويمتد غرباً إلى نون على ساحل المحيط، ويصل شمالاً إلى سفح الأطلس الجنوبي، ثم يتاخم رمال الصحراء جنوباً، ويطلق العرب نفس الاسم على جميع هذه البلاد المنتجة للتمر، لأن موقعها واحد.

والقسم الثالث المعروف بليبيا عند اللاتينيين لا يطلق عليه بالعربية سوى اسم الصحراء أي القفر، ويبتدىء شرقاً بتخوم الواحات، ويمتد غرباً إلى المحيط. ويجاور نوميديا في الشمال بلاد النخيل، وفي الجنوب أرض السودان التي تبتدىء شرقاً بمملكة ولاتة(7) الواقعة على شاطىء المحيط.

أما القسم الرابع، وهو أرض السودان، فيبتدىء شرقاً بمملكة كاوكة، ويمتد غرباً إلى مملكة ولاتة، ويتاخم في الشمال صحراء ليبيا، وينتهي جنوباً إلى المحيط في مواقع لا نعرف عنها غير ما يرويه التجار الذين يأتون إلى مملكة تنبكتو، وهو كثير.

---

(5) كان الرومان يطلقون اقليم نوميديا على الجبال التي يتكون منها بالتقريب حوض المجردة، بينما كانوا يسمون سكان السهل الشرقي في اقليم قرطاجة أفري، والقبائل التي تعيش في الغرب حتى ساحل المحيط موري، وجميع أهالي الصعيد وما وراءه من الساحل التونسي إلى ساحل المحيط «كيتولي».

ويبدو أن نوميديا لفظة بربرية الأصل، إلا أنها امتزجت منذ القديم، بكلمة نومادس اليونانية التي تدل على الرعاة الرحالة.

(6) هي القرية الرئيسية لواحة الخركة التي تصلها اليوم بنهر النيل سكة حديد تبلغ إلى النخيل على بعد 170 كلم. وسيجعل المؤلف في الكتاب السادس الواحات في ليبيا ويسميها الكشات.

(7) حرف هذا الاسم في الأصل فكتب (كوالاطة). ومن المعلوم أن ولاتة تقع في الداخل، شمال غرب تمبكتو. ولا يبعد أن يكون نفوذ حكامها وصل إلى شاطىء المحيط، في الوقت الذي كانت ملجأ للفارين من الطاغية سنى على ملك السودان.

يشق أرض السودان نهر النيجر الذي يخرج من فلاة تدعى ساوو، نابعاً من بحيرة عظيمة(8). وهو ــ حسب الجغرافيين ــ فرع من فروع النيل، يغيب تحت الأرض ثم يخرج منها ليكون هذه البحيرة. ويرى البعض أنه ينبع في جبال تقع إلى جهة الغرب، ثم يسيل نحو الشرق ليتحول إلى بحيرة، وهذا غير صحيح: فإننا سرنا في النهر شرقاً من تمبكتو واتبعنا مجرى المياه إلى مملكة جني ومملكة مالي، وكلتاهما واقعتان غربي تمبكتو. وأجمل أرض السودان ما امتد منها على طول مجرى النيجر. ويزعم الجغرافيون أن قسمًا من أرض السودان، الذي يشق النيل جزأه الغربي، يمتد شرقاً إلى بحر الهند، ويصل شمالاً، في بعض النقط، إلى البحر الأحمر، في القسم الذي يقع من هذا البحر وراء المضيق (باب المندب) الفاصل بين هذه الأرض وبلاد اليمن. ولم يعتبر هذا القسم من افريقيا لأسباب عديدة تكفلت الكتب المطولة بشرحها. ويسميه اللاتينيون أتيوبيا، ومنه يأتي بعض الرهبان الموسومة وجوههم بالنار، وهم يوجدون في أوربا كلها، ولا سيما في روما. ويحكم هذه البلاد رئيس من نوع الشيوخ يسميه الايطاليون بريطي جياني(9). ومعظم السكان من النصارى، إلا أن أميراً مسلمًا يملك اقليمًا شاسعاً في أثيوبيا.

أقسام أجزاء افريقيا الأربعة وممالكها

تشتمل بلاد البربر على أربع ممالك:

الأولى: مملكة مراكش، وتنقسم إلى سبعة أقاليم: حاحا، وسوس، ومراكش، وجزولة، ودكالة، وهسكورة، وتادلا.

---

(8) هي بحيرة التشاد.

(9) لقب حبشي حرف عند ذلك التاريخ، فصار بريطر جان، أو يوحنا الراهب.

والثانية: مملكة فاس، وتحتوي على نفس العدد من الأقاليم، تامسنا، وفاس وازغار، والهبط، والريف، وكرط، والحوز.

والثالثة: مملكة تلمسان، وفيها ثلاثة أقاليم: الجبال، وتنس، والجزائر.

والرابعة: مملكة تونس، وتخضع لها أربعة أقاليم: بجاية، وقسنطينة، وطرابلس الغرب، والزاب، وجل هذا الأخير تابع لنوميديا.

وكان إقليم بجاية موضوع نزاع مستمر، يتبع تارة سلطة ملك تونس، وسلطة ملك تلمسان أخرى، إلى أن أصبح في أيامنا هذه مملكة مستقلة استولى على عاصمتها الكونت بيير نافارو باسم ملك اسبانيا فيردیناند (10).

أقسام نوميديا
أي البلاد التي ينمو فيها النخيل

لم يطلق جغرافيونا اسم مملكة على هذا الجزء من افريقيا الذي يعتبر أقلها قيمة، وذلك للبعد الشاسع الذي يفصل بين المواقع المسكونة فيه. فهناك مثلاً تيشيت (11) المدينة النوميدية المشتملة على أربعمائة كانون، تبعد بـ300 ميل عن أي مكان آخر مسكون في فلوات ليبيا، لذلك لم تستحق لقب مملكة. وسأذكر أسماء المواقع المسكونة، لا سيما وأن بعضها يشبه المناطق

---

(10) الواقع أن بجاية كانت تابعة للحفصيين ملوك تونس حين انتزعها منهم الاسبانيون في 25 ماي 1509.

(11) جعل المؤلف هذه المدينة في نوميديا، وكذلك توات وكورارة وتكورت، ووركلة، وغدامس، وفزان، وهي في الواقع قرى أو مناطق صحراوية، الأمر الذي يدل على أن معلوماته الجغرافية تقريبية فيما يتعلق بمواقع نوميديا وليبيا. وسيرتكب نفس الخطأ عندما يتعرض للمرابطين فيقول إنهم جاؤوا من صحراء نوميديا.

الأخرى، كدولة سجلماسة المعروفة بموريطانيا، ودولة الزاب المقابلة لمملكة بجاية، وبلاد الجريد الممتدة نحو مملكة تونس.

أما الآن فأعتزم تفصيل المسائل المتعلقة بهذا الجزء الثاني من افريقيا في قسم آخر من هذا الكتاب. وأكتفي بسرد الأسماء الآتية، مبتدئاً من الغرب: تيشيت، ودان، افران، أقا، درعة، تبلبلة، تدغة، فركلة، سجلماسة، بني كومي، فكيك، توات، تسابت، تيكورارين(12)، مزاب، توكورت، وركلة.

ويكون الزاب اقليمًا يضم خمس مدن، وهي: بسكرة، والبرج، ونفطة، وتلكة، ودوسن. وفي بلاد الجريد حالياً نفس العدد من المدن، وهي: توزر، وقفصة، ونفزاوة، والحامة، وقابس. ويجيء بعد هذا الاقليم، إلى جهة الشرق، جزيرة جربة، غريان، مسلاتة، مسراتة، تاورغة، غدامس. فزان. أوجلة، برداي، والواحات(13).

تقسيم الفلوات
الواقعة بين نوميديا وأرض السودان

لم نطلق أي اسم على هذه الفلوات، غير أننا نقسمها خمسة أقسام تحمل أسماء من يسكنها، وتتوفر لديهم فيها أسباب المعاش، وهم النوميديون المنقسمون إلى خمسة أقسام: زناكة، وونزيكة، وتاركة، ولمطة، وبرداوة(14). وتوجد في هذه المناطق أماكن تحمل أسماء خاصة حسنة أو

---

(12) صيغة بربرية تعرب هكذا: كورارة.

(13) ما زالت «الواحات» تطلق على الأرض المصرية المعروفة بالخارجة. وسيجعلها المؤلف في الكتاب السادس من ضمن بلاد ليبيا أي الصحراء، وكذلك كفرة وسيرت على ساحل البحر المتوسط.

(14) هذا التقسيم مأخوذ جزئياً من ابن خلدون، غير أن الوزان كان يجهل أن برداوة ليسوا بربراً، بل هم زنوج من نوع خاص يعرف باسم تبو.

قبيحة بحسب حال البلاد، كالأزواد(15) المسماة هكذا لمحلها وجفافها، وهير(16) التي هي، وإن كانت أيضاً صحراء، فإن هواءها طيب معتدل.

تقسيم أرض السودان إلى ممالك

تنقسم بلاد السودان أيضاً إلى ممالك نجهل بعضها، لبعدها عن تجارتنا. لذلك لن أتعرض إلا للبلاد التي ذهبت إليها وترددت عليها كثيراً، أو التي كان التجار يأتون منها إلى البلدان التي زرتها، فيبيعون بضائعهم ويزودونني بمعلومات عنها. ولا أكتم أني زرت خمس عشرة مملكة من أرض السودان، وفاتني ثلاثة أضعافها لم أزرها، وكل منها معروف ومجاور للممالك التي كنت فيها.

وإليك أسماء هذه الممالك، ابتداء من الغرب إلى الشرق: ولاتة، جني، مالي، تنبكتو، كاوو، كوبير، أغدس، كانو، كلاتسينة، زكزك، زنفرة، ونكرة، بورنو، ڭاوڭا، ونوبة. وهذه هي الممالك الخمس عشرة الواقع معظمها على نهر النيجر، والتي تمر بها الطريق التي يسلكها التجار الذاهبون من ولاتة إلى القاهرة(17)، وهي طريق طويلة لكنها مأمونة. وتبعد هذه الممالك بعضها عن بعض، تفصل رمال القفار أو ماء النيجر بين عشر منها. ومن المعلوم أنه كان على رأس كل مملكة منها ملك مستقل، إلا أنها اليوم خاضعة لثلاثة ملوك: ملك تمبكتو الذي يملك الحظ الأوفر منها، وملك بورنو الذي يملك أقلها، وملك كاوو الذي يسيطر على

---

(15) جمع زاد بالعربية، وهو ما يأخذه المسافر معه من طعام وغيره.

(16) كلمة بربرية معناها الريح.

(17) يبدو أن الطريق بين ولاتة ومصر في جنوب الصحراء، والتي تلتحق بدرب الأربعين بين درفور وأسيوط، لم تكن مسلوكة كثيراً، ولم تفتح إلا ابتداء من آخر القرن السادس عشر، بعد سقوط مملكة نوبة المسيحية. وجميع الطرق المؤدية من غرب السودان إلى مصر كانت تخترق الصحراء وتلتقي عند فزان.

سائرها. ويلاحظ أن لملك دانكلة هو الآخر مملكة صغيرة. وهناك عدة ممالك أخرى تتاخم في اتجاه الجنوب الممالك الآنفة الذكر، وهي: بيتو، وتميام، وداومة، ومدرة، وكرهان، وملوكها ـ كسائر سكانها ـ أثرياء كثيرو الاتجار، يحكمون بالعدل ويدبرون أمورهم أحسن تدبير. أما سكان باقي الممالك فإنهم أحط من الحيوان الأعجم.

الاسكان في افريقيا
ومعنى كلمة بربر

يزعم الجغرافيون والمؤرخون أن افريقيا في القديم كانت خالية من السكان باستثناء أرض السودان. ومن المؤكد لديهم أن بلاد البربر ونوميديا لم تكن كل منهما مسكونتين طوال عدة قرون. ويعرف سكانها البيض بالبربر، وهي كلمة مشتقة، حسب رأي بعضهم، من الفعل العربي بربر بمعنى همَس، لأن اللهجة الافريقية كانت عند العرب بمثابة أصوات الحيوانات العجماوات. ويرى البعض الآخر أن بربر مكرور (بر) الذي هو الصحراء باللغة العربية. يحكى أن الملك افريقش، عندما غلبه الأشوريون أو الاثيوبيون، هرب إلى مصر. ولما وجد نفسه مطارداً عاجزاً عن مقاومة العدو، استشار قومه في أي سبيل يسلكونه للنجاة، فأجابوه صارخين: «البربر!» أي إلى الصحراء! معبرين بذلك عن كونهم لا يعرفون أي حل سوى عبور النيل واللجوء إلى صحراء افريقيا. وهذا التفسير لكلمة بربر متفق مع رأي من يقول ان أصل الأفارقة من اليمن(18).

---

(18) أطلق الاغريق القدماء بربروس على الأجنبي الذي يتكلم بلغة لا يفهمونها، ثم تبعهم اللاتينيون في هذا الاطلاق. وربما وجد العرب هذا اللفظ يطلق على الأهالي عندما فتحوا شمال افريقيا.

أصل الأفارقة

لم يختلف مؤرخونا كثيراً في أصل الأفارقة، فيرى البعض أنهم ينتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا إلى افريقيا حين طردهم الأشوريون، فأقاموا بها لجودتها وخصبها، ويزعم آخرون أن أصلهم راجع إلى السبئيين (أي الحميريين) الذين كانوا يعيشون في اليمن قبل أن يطردهم الأشوريون أو الاثيوبيون منها ـ كما أسلفنا ـ، بينما يدعي فريق ثالث أن الأفارقة كانوا يسكنون بعض جهات آسيا، فحاربتهم شعوب معادية لهم، وألجأتهم إلى الفرار إلى بلاد الاغريق الخالية آنذاك من السكان، ثم تبعهم أعداؤهم إليها، فاضطروا إلى عبور بحر المورة واستقروا بافريقيا، بينما استوطن أعداؤهم بلاد الاغريق(19). كل هذا خاص بالأفارقة البيض القاطنين في بلاد البربر ونوميديا.

أما الأفارقة السود بمعنى الكلمة فإنهم جميعاً من نسل كوش بن حام بن نوح. ومهما اختلفت مظاهر الأفارقة البيض والسود، فإنهم ينتمون تقريباً إلى نفس الأصل، ذلك أن الأفارقة البيض، إما أتوا من فلسطين ـ والفلسطينيون ينتسبون إلى مصرائيم بن كوش ـ، وإما من بلاد سبأ، وسبأ ابن هامة بن كوش ـ(20). وهناك افتراضات أخرى لا أذكرها

---

(19) يلخص الحسن الوزان هنا مسألة اهتم بها المؤرخون القدماء منذ هيرودتس، وكلف بها المؤلفون العرب، ولم تزل تشغل بال المؤرخين المعاصرين الذين يعجبون من وجود شعوب عديدة يختلف نوعها البشري أشد الاختلاف ولا تعرف أي وحدة سياسية، تكون شعباً حقيقياً متحد اللغة عريقاً في القدم رغم تنوع لهجاته، ذا طابع خاص لم يتغير منذ القدم. إن العلم الحديث يهتم بمعطيات واضحة للشعوب الشمالية من بين البربر، ولكن الاقدمين لم يعتبروا سوى هجرات المشارقة، بحيث أصبح البربر ولغتهم يعتبران من النوع الحامي. ومن الغريب أن يتحدث الوزان عن «هجوم شعوب البحر» قبل عدة قرون من اكتشاف الوثائق المصرية.

(20) سبا هذا مذكور في التوراة (X، 7) لكن السبئيين في القرآن الكريم هم رعايا بلقيس ملكة سبا اليمنية التي جاءت إلى سليمان (الاية 22 من سورة النمل، و 15 من سورة =

بالضبط لأني لم أر منذ عشر سنوات ولم أمس أي كتاب في التاريخ الإسلامي.

تقسيم الأفارقة البيض
إلى عدة شعوب

ينقسم الأفارقة البيض إلى خمسة شعوب: صنهاجة، ومصمودة، وزناتة، وهوارة، وغمارة. تسكن مصمودة الجزء الغربي للأطلس من حاحا إلى وادي العبيد، وكذلك الجهة المواجهة للجنوب وجميع السهول المجاورة. وتحتل أربعة أقاليم هي حاحا، وسوس، وجزولة، وناحية مراكش.

وتسكن غمارة جبال موريطانيا أي المحاذية للبحر المتوسط، وتحتل الساحل المسمى بالريف، والذي يبتدىء من أعمدة هرقل ليصل شرقاً إلى تخوم مملكة تلمسان التي يسميها اللاتينيون قيصرية[21]. ويعيش هذان الشعبان منعزلين عن سائر الشعوب الذين يختلطون عادة بعضهم ببعض وينتشرون في افريقيا كلها، لكنهم يتميزون فيما بينهم كما يتميز الأهلي عن الأجنبي. وهم دائماً في حروب وخصام مستمر، لا سيما النوميديون منهم.

ويذهب كثير من المؤلفين إلى أن عدد هؤلاء الشعوب الخمسة هو نفس عدد الذين كانوا يعتادون العيش في البادية تحت الخيام. ويؤكدون أنهم كانوا قديماً في حروب طويلة بينهم، وأن المغلوبين الذين أصبحوا أرقاء للمنتصرين اضطروا إلى السكنى في المدن، بينما استولى الغالبون على

= سبأ). وسبأ ــ في الرواية العربية ــ هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهو أول ملوك اليمن (حوالي القرن 20 ق. م.) تفرق أولاده العشرة بعد سيل العرم، فكانوا أصولاً تفرّع منهم سكان الجزيرة العربية.

(21) قيصرية اللاتين عاصمتها شرشال كانت تشكل تقريباً مملكة تلمسان.

البوادي التي استقروا فيها. ويؤيد هذه النظرية وحدة اللهجة عند كل من البدويين والحضريين: فبدو زناتة مثلاً يتكلمون بنفس اللهجة التي يتكلم بها حضرهم، وكذلك الحال عند سائر الشعوب(22).

ويتعايش في بادية تامسنا ثلاثة من هذه الشعوب: زناتة، وهوارة، وصنهاجة متسالمين تارة ومتحاربين بضراوة أخرى، لعداوة قديمة بينهم فيما أعتقد.

وقد سيطر بعض هذه الشعوب مثل زناتة على افريقيا كلها، وهم الذين طردوا آل ادريس، مؤسس مدينة فاس وملكها الشرعي. ويسمى هذا الفرع الزناتي مكناسة. ثم جاء من نوميديا فرع زناتي آخر يدعى مغراوة وطرد مكناسة واحتل المملكة مكانها. ولم يمض وقت قصير حتى جاء من صحراء نوميديا قوم ينتمون إلى صنهاجة ويعرفون بلمتونة، فطردوا الزناتيين واستولوا على بلاد تامسنا كلها وقضوا على سكانها باستثناء رهط من جنسهم نقلوهم إلى دكالة، وهم الذين أسسوا مدينة مراكش(23).

واتفق بعد ذلك أن رجلاً عظيم الشأن في أمور الدين يدعى المهدي ثار على اللمتونيين وتحالف مع هرغة التي هي فرع من مصمودة. وقد تمكن المهدي من أن يطرد لمتونة ويبايع هو ملكاً، وخلفه بعد موته تلميذه عبد المؤمن من بني ورياكل واستمر الملك في أولاده زهاء مائة وعشرين سنة. حكموا خلالها افريقيا كلها تقريباً إلى أن قضى عليهم المرينيون

---

(22) يقصد الكاتب أن برابرة المدن وبرابرة البوادي لا يختلفون إلا بوضعيتهم الاجتماعية، فالعيش تحت خيام الوبر رمز الحرية والشرف، بينما حياة الحضر هي رمز الذلة والعبودية.

(23) حارب اللمتونيون (المرابطون) فعلاً البرغواطيين الضالين المنتشرين في بلاد تامسنا وقضوا عليهم بعد أن سقط قائد المرابطين عبد الله بن ياسين قتيلاً في المعركة، وخلفه يوسف ابن تاشفين الذي أسس مدينة مراكش عام 1062/454 وقعد قواعد الدولة اللمتونية المرابطية.

الزناتيون. ودامت دولة هؤلاء نحو مائة وسبعين سنة، فانتزع الملك منهم بنو وطاس، وهم فرع من لمتونة(24).

وكان بنو مرين في حرب مستمرة ضد بني زيان ملوك تلمسان، وأصلهم من قبيلة صنهاجة فرع مغراوة، وضد الحفصيين ملوك تونس، وهم من قبيلة هنتاتة فرع مصمودة(25).

هكذا نرى كم كان كل واحد من هذه الشعوب الخمسة يكافح ويعمل جاهداً في هذه النواحي. والواقع أن غمارة وهوارة لم تنجبا قط ملوكاً حقيقيين، وإنما كانت لهم إمارات في بعض الأقاليم الخاصة، كما هو مذكور في تواريخ الأفارقة. وقد تولوا هذا الحكم على أثر فتح المسلمين لافريقيا. وبعد ذلك اتخذ كل شعب منهم سكناه على حدة في البادية وجعل يساند أبناء عشيرته، مقسمين الأعمال الضرورية للحياة فيما بينهم، يشتغل سكان البادية بتربية الماشية، ويتعاطى سكان المدن الصناعات اليدوية والفلاحة.

وتنقسم كل هذه الشعوب الخمسة في جملتها إلى عدة أفخاذ، كما ذكر ذلك أحد كتابهم وهو ابن الرقيق الذي قرأت تاريخه مراراً، إلا أن معظم المؤرخين يزعمون أن ملك تمبكتو الحالي وملك مالي السابق وملك أكدز ينتمون إلى قبيلة زناكة الصحراوية(26).

---

(24) يقصد ولا شك زناتة، لأن الوطاسيين أبناء عمومة المرينيين

(25) كان بنو زيان عمالاً للموحدين ملوك مراكش على تلمسان، كما كان الحفصيون عمالاً للموحدين على تونس. فلما ضعفت دولة الموحدين استبد كل من الزيانيين والحفصيين بالحكم، فأسس الأولون إمارة تلمسان التي ستستمر إلى عام 1555/962، والأخيرون إمارة تونس التي ستنتهي عام 1573/981، وذلك على يد الأتراك العثمانيين.

(26) زناكة تحريف لصنهاجة شائع في أماكن متعددة بالصحراء. ويذكر النسابة السودانيون، مثل أحمد بابا، أن كثيراً من الأسر السودانية النبيلة صنهاجية الأصل. . ويبدو أن فرقاً من صنهاجة التي سكنت الصحراء نزلت في فترات متعددة إلى بلاد =

اختلافات اللغة الافريقية وموافقاتها

إن هذه الشعوب الخمسة المنقسمة إلى مئات السلالات وآلاف المساكن تستعمل لغة واحدة تطلق عليها اسم أوال أمزيغ، أي الكلام النبيل، بينما يسميها العرب البربرية. وهي اللغة الافريقية الأصيلة الممتازة والمختلفة عن غيرها من اللغات. ولما كانت مشتملة على عدد من المفردات العربية استدل البعض بذلك على أن الأفارقة ينتمون إلى السبئيين، وهم سكان اليمن كما أسلفنا. لكن أنصار الرأي المخالف يؤكدون أن هذه المفردات إنما أدخلها العرب عندما جاؤوا إلى افريقيا وفتحوها. وكانت هذه الشعوب في حالة من البداوة والجهالة بحيث لم تترك أي كتاب يؤيد احدى النظريتين، على أن هناك اختلافاً بين اللهجات لا في النطق فحسب، ولكن أيضاً في معنى كثير من الألفاظ. والأفارقة الذين هم أقرب إلى مساكن العرب وأوثق صلة بهم هم أكثر الأفارقة استعمالاً للكلمات العربية في لهجتهم. فغمارة إلا أقلهم يستعملون العربية، لكنها عربية رديئة، وكذلك الشأن في عدد كبير من قبائل هوارة. والسبب في ذلك أن هذه الشعوب على اتصال شفوي مستمر مع العرب.

أما في بلاد السودان فاللغات متباينة، تسمى احداها **سونغاي** وتستعمل في عدة نواح، كولاته، وتمبكتو، وجني، ومالي، وكثاوو، بينما تدعى لغة أخرى كوبر وتستعمل في بلاد كوبر، وكانو، وكاسنا، وبرزكزك، ووانكرة(27). وهناك لغة في بورنو(28) تشبه المستعملة في كاوكاو(29)، وأخرى بقيت مستعملة في مملكة النوبة تختلط فيها العربية والسريانية والقبطية.

= السودان واختلطت بالسكان الأصليين عن طريق الزواج، ولا سيما في القرنين الرابع والخامس للهجرة 10 و11 م.

(27) هي لهجة الحوصة.

(28) هي لهجة الكنوري.

(29) هي لهجة الكنمبو.

وفي جميع المدن الافريقية الواقعة على شاطىء البحر المتوسط(30) إلى جبال الأطلس يتكلم الناس على العموم بلغة عربية فصيحة، ما عدا في مملكة مراكش وفي مدينة مراكش نفسها، فإن اللغة المستعملة هي البربرية وهذه اللغة مستعملة أيضاً في بلاد نوميديا، أو على الأقل عند النوميديين المجاورين لموريطانيا والقيصرية، لأن الشعوب المجاورة لتونس تتكلم كلها بلغة عربية فاسدة.

العرب القاطنون في مدن افريقيا

ان الجيش الذي أرسله عثمان ثالث الخلفاء الراشدين في العام الرابع والعشرين للهجرة، حمل إلى افريقيا عدداً كبيراً من العرب يناهز الثمانين ألفاً من الأشراف وغيرهم(31).

ولما فتح الكثير من المناطق، عاد إلى الجزيرة العربية تقريباً جميع الأعيان والأشراف، ولم يبق مع المخلفين إلا قائد الجيش المدعو عقبة بن نافع. وقد بنى مدينة القيروان وحصَّنها، إذ كان يخشى أن يخذله سكان الساحل وترد عليهم إعانة من جزيرة صقلية فيحاربوه بها. لذلك تراجع إلى داخل الصحراء حاملاً معه جميع الثروات التي غنمها، وأسس مدينة القيروان على بعد نحو 120 ميلاً من قرطاج(32) وأمر القواد العسكريين

---

(30) لعل المؤلف يقصد شاطىء المحيط الأطلنطيقي، لأن سهوله هي مواطن القبائل العربية، كما هو معروف، ولأنها هي الممتدة إلى جبال الأطلس كما ورد في نص المؤلف. ويؤكد ذلك استثناؤه مملكة مراكش الواقعة في جنوب سهول الشاطىء الأطلنطيقي.

(31) يمكن أن يكون هذا العدد صحيحاً إذا اعتبرنا الحملات المتلاحقة من عهد الخلفاء الراشدين إلى أيام الأمويين الأولين.

(32) على بعد 192 كلم من تونس العاصمة.

والمدنيين الذين أقاموا معه أن ينزلوا في الأماكن الأكثر مناعة والتي يسهل الدفاع عنها، وأن يشيدوا قلاعاً وحصوناً حيث لا توجد ففعلوا(33).

وعندما أمن العرب، أصبحوا مواطنين بهذه البلاد ممتزجين بالأفارقة. وكان هؤلاء قد اتخذوا آنذاك اللغة الإيطالية لغة لهم بعد أن خضعوا مدة طويلة لحكم الإيطاليين. لذلك فإن العرب الذين عاشوا بين الأفارقة وظلوا على اتصال دائم بهم فسدت لغتهم وصارت خليطاً من اللهجات الافريقية، وامتزج الشعبان المختلفان شعباً واحداً، غير أن كل عربي وبربري ظل يحتفظ بكتابة عمود نسب آبائه، وهذا شيء من الأهمية بمكان، يمكن كل عدل أو محرر عقد رسمي أن يذكر اسم المعني بالأمر وأصله عربياً كان أو بربرياً.

العرب القاطنون بإفريقيا
تحت الخيام لا في الدور

كان الخلفاء المسلمون يمنعون الأعراب دائماً من اجتياز النيل بأهلهم وخيامهم، إلى أن كان عام 400 للهجرة، فأذن لهم بذلك أحد الخلفاء الشيعيين، لأن شخصاً صديقاً موالياً له كان قد ثار واستولى على مدينة القيروان ومعظم بلاد البربر، وتوارث الملك بعد وفاته أولاده مدة من الزمن(34).

---

(33) كان معاوية بن حديج قد أقام القيروان في سفح جبل وسلات، فحول عقبة هذا المركز إلى السهل الرملي الذي هو الموقع الحالي للقيروان ليكون في مأمن من الهجمات المتوقعة من الجبال. وقد قتل عقبة بن نافع عند رجوعه من المغرب الأقصى في كمين أعد له قرب بسكرة عام 63 هـ/ 683 م.

(34) تحدث المؤلف هنا بالتقريب معتمداً فقط على ذاكرته، دون أن تكون له كتب يرجع إليها ليتأكد من تسلسل الأحداث وضبط تواريخها. فذكر أن هجرة الأعراب من مصر إلى افريقيا في عام 400، وقد كانت في الواقع عام 441 هـ/ 1050 م. أمر بها الخليفة الفاطمي المستنصر بالله انتقاماً من الزيريين الصنهاجيين أمراء القيروان الذين قطعوا =

قرأت في كتب تاريخ افريقيا أنه في أيام القائم، ملك هذه الدولة البدعية وإمامها، اتّسعت امبراطوريته وتكاثر أتباعه، فبعث إلى الغرب غلاماً له يدعى جوهراً، وكان مولاه وكاتبه، على رأس جيش عرمرم فتح به جميع بلاد البربر ونوميديا إلى أن وصل إلى الجنوب، ثم رجع إلى سيده بكل ما جمع من خراج هذه البلاد وإتاواتها، ذهباً وغيره.

ولما تأكد الخليفة من قيمة هذا الرجل ورأى ما أحرز عليه من انتصارات، عزم على أن يكلفه بمهمة أكثر خطورة، فأطلعه عليها وأجابه جوهر قائلاً: «أتعهد لك يا مولاي أنني كما فتحت لك هذه الأقاليم الغربية سأفتح ممالك الشرق، أي مصر وسوريا وكل الجزيرة العربية، وسأنتقم لك بذلك من كل ما ارتكبه العباسيون من بغي وظلم ضد أسلافك. ومهما كانت المخاطر والمصاعب التي ستواجهني، فلن يقر لي قرار حتى أبوئك عرش أسلافك الشرفاء الكرام الأمجاد».

تأثر الخليفة بشجاعة مولاه واطمأن إلى قوله، فاستنفر جيشاً مؤلفاً من ثمانين ألف رجل جعل على رأسه جوهراً مفوضاً له الأمر مزوداً إياه بكثير من الأموال والأقوات. سار الغلام الوفي على رأس جيشه مخترقاً الصحراء الفاصلة بين بلاد البربر وديار مصر، وقبل أن يصل إلى الاسكندرية فرَّ والي مصر ملتحقاً بالخليفة العباسي ببغداد(35).

= دعوة الفاطميين وخلعوا طاعتهم. وقد أضعفت فعلاً هجرة أعراب بني هلال سلطة الزيريين إلى أن قضى عليهم نهائياً عبد المؤمن الموحدي عام 555 هـ/ 1160 م.

وكذلك الشأن فيما حكاه المؤلف بعد هذا مما كان قرأه في كتب التاريخ عن اتساع الدولة الفاطمية غرباً وشرقاً.

انظر تفاصيل هذه الأحداث بدقة عند الدكتور حسن ابراهيم حسن في كتابه «**تاريخ الدولة الفاطمية**».

(35) كانت مصر آنذاك خاضعة لأمراء الدولة الاخشيدية التابعين لخلفاء بني العباس ببغداد.

هكذا استولى جوهر على كل بلاد مصر وسوريا في أمد قريب دون أن يلقى مقاومة كبيرة، إلّا أنه لم يطمئن باله، وأخذ يتساءل عما إذا فاجأه خليفة بغداد بجموع جيش آسيا، وأرغمه بهجوم مضاد قوي على فقدان وسائل الدفاع وجيوش البربر في آن واحد. لذلك عزم على أن يشيد حصناً يأوي إليه رجاله عند الاقتضاء ويقاومون هجوم العدو(36). فبنى مدينة أحاطها بالأسوار، وأقام على حراستها من كانوا عنده محط الثقة الكبرى ومعهم طائفة من الجند. وقد سمى هذه المدينة القاهرة «أي التي تقهر» ويدعوها الأوربيون عموماً (Le Caire) فلم تزل تنمو وتتسع أحياؤها ويتكاثر سكانها داخل الأسوار وخارجها حتى أضحت لا تضاهيها أية مدينة أخرى في العالم.

ولما رأى جوهر أن خليفة بغداد لم يحاول مقاومته، أخبر سيده بأن جميع البلدان التي احتلّها قد تم خضوعها وعاد إليها السلم، وأنها محروسة مستعدة للدفاع. وإذا ما ارتأى سيادته أن يذهب بنفسه إلى مصر، فإن مجرد حضوره سيساعد على فتح ما بقي من البلاد أكثر مما يساعد على ذلك مئات المحاربين، وسيكون من شأن ذلك أن يتخلى خليفة بغداد عن الإمامة والملك ويفر بنفسه.

وعندما طرق هذا الكلام الجميل سمع الخليفة الفاطمي، أعدَّ جيشاً عظيمًا وذهب غير مبالٍ بما عسى أن يعترضه، مهتبلاً بهذه الفرصة الجديدة، بعد أن ولى على بلاد البربر قائداً أميراً من صنهاجة لم يكن صديقاً له

---

(36) لم يكن تهديد الفاطميين من قبل خليفة بغداد، وإنما كان التهديد من القرامطة الذين هاجموا العباسيين واقتطعوا الكثير من مناطق نفوذهم. انظر: ح. ابراهيم حسن، «تاريخ الدولة الفاطمية»، ص 157-160. وانظر: أصل القرامطة واتساع نفوذهم عند ابن خلدون «العبر»، 3:736-747، 4:181-200.

فحسب، بل خادم بيته(37). ولما وصل إلى القاهرة استقبله مولاه بغاية الخضوع. ثم ظهرت له عدة مشاريع وأرسل جنده لمحاربة خليفة بغداد(38).

وفي هذه الأثناء تمرَّد حاكم بلاد البربر (الصنهاجي) وعرض طاعته على خليفة بغداد الذي رحَّب بهذا العرض ومنحه مزايا عظيمة وعيَّنه ملكاً على افريقيا كلها. علم القائم(39) بهذا الخبر وهو في القاهرة، فكبر عليه الأمر، لأنه كان خارجاً عن مملكته وقد أنفق كل ما حمل معه من ذخائر الذهب والمؤن وحار في أمره وأخذ يصب لعناته على مولاه (جوهر) الذي أشار عليه بالقدوم إلى القاهرة. وقد كان عنده كاتب عالم ذكي اسمه أبو محمد الحسن(40) أدرك سبب ندم مخدومه وأنه هالك لا محالة إن لم يعالج الحالةالتي هو عليها، فأخذ يواسيه ويقول له: «مولاي! إن الدهر قلب، فلا تفقد الثقة في قوتك من أجل ما أصابك أخيراً. وإذا قبلت رعاك الله الرأي الذي سأعرضه عليك أنا خادمك الوفي بكل نية وإخلاص، فلا شك أنك ستسترجع عما قريب كل ما سلبك إياه الثوار، وتدرك بعد ذلك كل ما تتمناه دون أن تستأجر أي جندي، بل أريد أن يكون الجيش الذي سأجعله بين يديك هو الذي يؤدي لك الثمن لسبب سأشرحه لك».

---

(37) خرج الخليفة المعز لدين الله من عاصمته المنصورية (مدينة صبرة المتصلة بالقيروان) يوم الأربعاء 22 ذي القعدة عام 4/361 سبتمبر 972 بعد أن استخلف على افريقية بلكين بن زيري الصنهاجي وأمر الناس بطاعته.

(38) بل حارب الفاطميون القرامطة ومن معهم من ثوار الأتراك، انظر: «**تاريخ الدولة الفاطمية**».

(39) يستعمل المؤلف هنا لقب القائم بتجوز، لأن هذا اللقب خاص بثاني الخلفاء الفاطميين أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي المتوفى عام 946/334. وكان المتولي للخلافة أيام استبداد الزيريين بحكم إفريقيا هو المستنصر بالله ثامن الخلفاء الفاطميين، المتوفى عام 1094/487.

(40) هو الحسن بن علي اليازوري قاضي قضاة مصر الذي عين وزيراً عام 1050/442 وقتل عام 1058/450.

طابت نفس الخليفة لهذا الكلام، وسأل: كيف يكون ذلك؟ فتابع الكاتب كلامه قائلاً: «إنك تعلم يا مولاي أن سكان الجزيرة العربية تكاثروا إلى حد أن البلاد أصبحت اليوم لا تسعهم جميعاً، وما تنتجه الأرض يكاد لا يكفي لعلف الماشية لشدة قحطها. والناس لا يشكون فيها قلة الأماكن للسكنى فحسب، وإنما يعانون أيضاً قلة الطعام، لهذا فإنهم سيهاجرون إلى افريقيا إن أذنت لهم. فَأْذَنْ لهم بالهجرة، وسأضع بين يديك بسبب ذلك كمية هائلة من الذهب»(41).

ولما أنهى الكاتب كلامه لم يقتنع الخليفة كثيراً بنصيحته، إذ اعتبر أن الأعراب سيخربون افريقيا فلا يستفيد من ذلك هو ولا الثائر، لكنه رأى من جهة أخرى أنه فقد مملكة إفريقيا على أي حال، فأخف الضررين أن يحصل على مبلغ طائل من المال كما وعده بذلك مستشاره، وأن يثأر من عدوه في نفس الوقت، بدلاً من أن يفقد الأمرين معاً. لذلك أمر كاتبه أن ينشر مرسوماً يقضي بأن كل اعرابي يؤدي ديناراً فقط(42) يسمح له بالعبور إلى افريقيا بكل حرية، شريطة أن يحلف أنه سيعامل الأمير الثائر معاملة العدو. فكان ذلك، وعبر نحو عشر قبائل عربية، أي نصف سكان

---

(41) تختلف الروايات التاريخية المعروفة قليلاً عما أورده المؤلف هنا بحكم اعتماده على الذاكرة أيضاً. والمعروف أن المعز بن باديس الصنهاجي حاكم افريقيا قطع الخطبة باسم الفاطميين على منابره وأحرق بنود المستنصر ومحا اسمه من السكة والطرز سنة 443 هـ/ 1051 م، ودعا للخليفة العباسي القائم بأمر الله، فجاءه خطابه وكتاب عهده فقرىء بجامع القيروان ونشرت الرايات السود العباسية، انظر: «الاستقصا»، 2:147-148.

(42) هنا أيضاً إجمال وبعض اختلاف، إذ بعث المستنصر وزيره اليازوري إلى بني هلال وبني جشم المقيمين بصعيد مصر وأرضخ لأمرائهم في العطاء، ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل، فعبروه ونزلوا ببرقة واستباحوها وأعجبتهم البلاد، فكتبوا إلى إخوانهم الذين بقوا شرقي النيل يرغبونهم في البلاد، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا المستنصر دينارين لكل رأس، فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه. (انظر: «الاستقصا»، 2:148).

صحراء الجزيرة العربية، وبعض بطون قبائل اليمن. كان عدد الرجال المحاربين يناهز خمسين ألفاً، ولا يكاد يحصى عدد النساء والأطفال والبهائم، وقد أحصاهم عدداً المؤرخ الافريقي ابن الرقيق المذكور آنفاً(43). وهكذا قطع العرب في وقت وجيز الصحراء التي قلنا انها تفصل بين مصر وبلاد البربر، فتوقفوا أولاً لمحاصرة طرابلس حتى أخذوها عنوة ونهبوها وقتلوا كل من أمكنهم قتله بها، ثم توجهوا إلى قابس وخربوها، وأخيراً أقاموا الحصار على القيروان التي تحصَّن فيها الأمير الثائر بكل ما يحتاج إليه من زاد وغيره مدة ثمانية أشهر انتهت بدخول الأعراب إلى المدينة عنوة ونهبها وقتل الثائر بها صبراً(44).

وبعد ذلك اقتسم هؤلاء الأعراب جميع البوادي وسكنوها، وفرضوا على كل مدينة ضرائب وتكاليف جسيمة، وظلوا سادة هذه الناحية من افريقيا إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين أول ملوك مراكش، فبالغ المجهود في إسعاف أقارب الثائر الهالك، وما زال يعمل إلى أن حرر المدن من سيطرة الأعراب الذين استقروا رغم ذلك في البوادي يقتلون وينهبون ما استطاعوا، بينما بقي أهل الأمير الثائر يحكمون في أماكن مختلفة.

ولما تولى الحكم أمير المؤمنين المنصور رابع الملوك الموحدين عزم على محاربة أبناء الأمير الثائر وحرمانهم من كل سلطة، خلافاً لأسلافه الذين

---

(43) يبدو أن ابن الرقيق لم يتكلم عن هجرة بني هلال لأن الأحداث التي يتحدث عنها تنتهي عام 417 هـ/ 1027 م. وربما أراد المؤلف أن يقول ابن رشيق، فكلا الرجلين من القيروان. ولابن رشيق الأديب «تاريخ القيروان»، و «ميزان العمل في تاريخ الدول».

(44) انتصر العرب، وعددهم ثلاثة آلاف، على أمير افريقيا المعز بن زيري وجيشه المؤلف من ثلاثين ألف جندي عام 1052/443، ثم نازلوه بالقيروان وطال عليه أمر الحصار إلى أن افتتحها العرب ونهبوها وفرَّ المعز إلى المهدية متحصناً بها إلى أن مات 1052/454. وتوارث أبناؤه من بعده إمارة المهدية إلى أن قضى عليهم نهائياً الموحدون. انظر ابن خلدون «العبر»، 31:6، وما بعدها.

أشفقوا عليهم وأصلحوا حالهم. لجأ المنصور إلى الحيلة وعقد معهم معاهدات، ثم دفع العرب إلى محاربتهم، فانتصروا عليهم دون عناء، وبعد ذلك نقل المنصور أهم قبائل الأعراب إلى الممالك الغربية، فأسكن أشرفهم بدكالة وأزغار، وأدناهم بنوميديا(45).

وبعد ذلك استرجع أعراب نوميديا حريتهم من النوميديين الذين استعبدوهم، واستولوا بالغلبة على الجزء الذي منحهم إياه المنصور، موسعين إقليمهم يوماً بعد يوم. وأما النازلون بأزغار وباقي نواحي موريطانيا فاستعبدوا أيضاً جميعاً، لأن الأعراب خارج الصحراء كالسمك خارج الماء. وكان بالإمكان أن يذهبوا إلى الصحراء لو لم يمنعهم من ذلك امتلاك البربر لمسالك الأطلس، كما كان عليهم من جهة أخرى ألا يحاولوا أي توغل في البوادي لأنها خاضعة لغيرهم من الأعراب. فأقبلوا على رعي الماشية وحرث الأرض متخلين عن كبريائهم، وعاشوا مع ذلك تحت الخيام لا في الأكواخ والدور الخشنة. وزاد من فقرهم أنهم كانوا مرغمين على أداء إتاوة سنوية لملك فاس، بخلاف أعراب دكالة الذين أعفوا من كل التكاليف، محتمين بوفرة عددهم.

وتخلف بعض الأعراب في ناحية تونس العاصمة، لأن المنصور امتنع عن أخذهم معه، فاستولوا بعد ذهابه على تونس، وملكوا البلاد إلى أن قام بعض الأمراء الحفصيين، فاتفقوا معهم على أن يتركوا لهم السيادة المطلقة شريطة أن يعطيهم الحفصيون نصف الأعشار وما يستخلصونه مما تُنتجه المملكة(46)، لكن ملوك تونس لم يستطيعوا إرضاء جميع الأعراب، لأن

---

(45) عبارة ابن خلدون («العبر»، 46:6) هكذا «وراجعت قبائل جشم ورياح من الهلاليين طاعته ــ أي المنصور ــ ولاذوا بدعوته فنفاهم إلى المغرب الأقصى، وأنزل جشم ببلاد تامسنا ورياحاً ببلاد الهبط وأزغار مما يلي سواحل طنجة إلى سلا».

(46) استبد الحفصيون، وكانوا حكاماً لتونس من قبل الموحدين، بأمر تونس عام 1320/627، وأسسوا بها دولة مستقلة استمرت أزيد من ثلاثة قرون إلى أن تغلب =

عددهم يفوق إمكانيات المداخيل ومنتجات البلاد، فوزعوا ذلك على طائفة منهم شريطة أن يحافظوا على الأمن في البوادي، ففعلوا ولم يسيؤوا إلى أحد. وأما الأعراب المحرومون فإنهم أخذوا يتعاطون النهب والقتل وارتكاب أفظع الجرائم، ، وكثيراً ما يتربصون في الكمائن، حتى إذا مر بهم مسافر خرجوا وجردوه من المال والثياب، ثم فتكوا به؛ فأصبحت الطرق غير آمنة البتة. والتجار الذين يريدون الذهاب من عاصمة تونس إلى مدينة أخرى لقضاء بعض الحاجات يصحبون معهم خفيراً من أصحاب البنادق، إلاَّ أنهم يتعرضون لأحداث خطيرة: أولها أداء مبلغ ضخم من المال للعرب المأجورين من قبل الملك ليسمحوا لهم بالمرور، وثانيها وأقبحها التعرض في كثير من الأحيان لهجوم الأعراب الآخرين، فلا يغني عنهم شيئاً خفير النجاة المصاحب لهم، ويفقدون أموالهم وأرواحهم معاً.

أصناف العرب الذين سكنوا إفريقيا وسموا بالعرب المستعجمة(47)

ينتمي العرب الذين دخلوا افريقيا إلى ثلاث قبائل: حكيم، وهلال، ومعقل. وتنقسم حكيم إلى ثلاثة فروع كبرى: اثبج، وسميت (؟)، وسعيد.

= عليهم الإسبانيون في مطلع القرن الهجري العاشر، وقضت عليهم نهائياً الحملة التركية الكبرى بقيادة الوزير سنان باشا عام 1573/981، فأصبحت البلاد التونسية ولاية عثمانية.

(47) لم يسر المؤلف هنا على نمط تقسيم ابن خلدون لقبائل العرب الداخلين إلى المغرب في القسم الأول من المجلد السادس من كتاب «العبر» بعنوان: الطبقة الرابعة من العرب المستعجمة (جزء 6، ص 3-174). والعذر للمؤلف في انعدام المراجع المكتوبة لديه أثناء التأليف. فقد احتفظت ذاكرته ببعض أصول القبائل وفروعها حسبما كتبه ابن خلدون، وذلك مثل بطون ذوي منصور، وذوي عبيد الله، ودوي حسان المتفرعة عن قبيلة معقل، إلاَّ أن التحريف الناتج عن الترجمات الأعجمية المتعددة للكتاب أفسدت كثيراً من أعلام القبائل وجعلت التعرف على اسمها الحقيقي متعذراً في بعض =

وتتفرع اثبج بدورها إلى ثلاثة فروع صغرى: دلاج، والمنتفق، وصبيح. كما تتفرع كل قبيلة من هذه القبائل إلى عدة بطون.

وتنقسم هلال من جهتها إلى أربعة فروع: بني عامر، ورياح، وسفيان، وهوازن ويتفرع بنو عامر إلى: عروة، وعقبة، وهبرة، ومسلم.

وتشتمل رياح على ذواد (دواودة)، وسويد، وأسجع، وحارث، والنضر (؟) وكرفة، بينما تتفرع هذه القبائل الست إلى عدة أسر.

وأما معقل ففروعها ثلاثة: مختار، وعثمان، وحسان.

تشتمل مختار على روحة، وسليم، وعثمان على حاسن، وكنانة، وحسان على ذوي حسان، وذوي عبيد الله، وذوو حسان على دليم، والأوداية، والبرابش، والرحامنة، وأحمر.

ويشتمل ذوو منصور على العمارنة، والمنابهة، وأولاد حسين، وأولاد أبي الحسين.

وينقسم بنو عبيد الله بدورهم إلى خراج وحدج، وثعلبة، وجعوان. وتتفرع كل هذه القبائل إلى بطون عديدة يصعب بل يستحيل استحضارها.

= الأحيان. على أن الاختلاف البيِّن بين ما عند ابن خلدون والحسن الوزان، في تعداد بعض البطون والعمائر والأفخاذ، راجع كذلك إلى تطور الأسماء تبعاً لتعاقب الأجيال، واختفاء بعض الأسر وانقراضها، وظهور أخرى مكانها على مسرح الأحداث بأسماء رؤسائها وأحيائها الجديدة، إذ لم يعتمد الحسن الوزان في معرفته للقبائل العربية على ما قرأه في كتب النسابين والمؤرخين، وإنما انتقل إلى ديارهم وعرفهم عن قرب كما سيصرح بذلك فيما يأتي.

وقد حرر أحمد الناصري في «الاستقصا» (جزء 2، ص: 145-161) أصول عرب المغرب وكيفية دخولهم إليه واستيطانهم إياه ملخصة من «تاريخ» ابن خلدون، و«جمهرة الأنساب» لابن حزم.

توزيع العرب
بحسب المناطق وذكر عددهم

كانت اثبج أشرف العرب وأنبههم شأناً، فاختارهم المنصور لسكنى دكالة وسهول تادلا. ويؤدون في أيامنا هذه ضرائب جسيمة لملك البرتغال تارة، ولملك فاس تارة أخرى. ويبلغ عددهم نحو مائة ألف مقاتل نصفهم من الفرسان.

وتخلفت سميت في بيداء ليبيا من أعمال صحراء طرابلس، وقليلاً ما يأتون إلى بلاد البربر، إذ لا نفوذ لهم فيها، ولم تخصص لهم بها أية منطقة يسكنونها. فهم مقيمون دوماً بالصحراء مع إبلهم، وعددهم تسعون ألف رجل على أهبة حمل السلاح، غالبهم من المشاة.

يسكن بنو سعيد نفس الصحاري الليبية، ويتعاملون معاملة صداقة وتجارة مع مملكة وركلة، ويكسبون عدداً وافراً من الماشية يمونون بلحومها جميع المدن والقرى المجاورة في فصل الصيف فحسب، لأنهم لا يغادرون الصحراء في فصل الشتاء. ويناهز عددهم مائة وخمسين ألف رجل، لا خيول لهم.

وينتشر دلاج في مناطق متعددة، فيعيش معظمهم في تخوم القيصرية ومملكة بجاية، ويتلقون إعانات مالية من الأمراء المجاورين لهم. وتسكن أصغر فرقهم سهل أدخسان(48) بتخوم موريطانيا والأطلس، وتؤدي الخراج لملك فاس.

ويسكن المنتفق سهل أزغار ويعرفون اليوم بالخلط(49) ويؤدون الخراج كذلك لملك فاس. ويقدر عددهم بثمانية آلاف فارس مجهز أحسن تجهيز.

---

(48) السهل الحالي لمدينة خنيفرة شمالي قصبة تادلا.

(49) مايزال الخلط يسكنون ضواحي مدينة القصر الكبير.

أما صبيح، أعني أهمهم وأعلاهم قدراً، فإنهم يعيشون في تخوم مملكة الجزائر، ويتلقون إعانات مالية من ملك تلمسان، ولهم في نوميديا أقاليم عديدة خاضعة لهم. ومن عادة هؤلاء الأعراب أن يرحلوا كذلك في فصل الشتاء إلى الصحراء لكثرة إبلهم. وتقيم فرقة أخرى من صبيح في السهول بين سلا ومكناسة(50)، ولهم أغنام وأبقار، يحرثون الأرض ويؤدون الخراج كذلك لملك فاس. ويقدر عددهم بأربعة آلاف فارس مجهز أحسن تجهيز.

رهط بني هلال ومواطنهم

أهم فرع لهذا الرهط هم بنو عامر المقيمون بتخوم مملكتي تلمسان ووهران، يرحلون إلى صحراء تيكورارين ويستأجرهم ملك تلمسان. وهم ذوو شجاعة فائقة وثروة طائلة، عددهم نحو ستة آلاف من أحسن الفرسان وأقواهم عتاداً.

أما عروة القاطنون بضواحي مستغانم فهم وحوش ولصوص، يرتدون أرذل لباس ولا يبتعدون عن الصحراء، إذ لا موطن لهم في بلاد البربر ولا إعانة مالية، وعددهم نحو ألفي فارس.

وتسكن عقبة ضواحي مليانة ويمدهم ملك تنس بقليل من المال، لكنهم فتاكون بدون شفقة ولا رحمة، وهم نحو ألف فارس.

وديار هبرة في السهل الممتد بين وهران ومستغانم، وهم فلاحون يؤدون الخراج لملك تلمسان، ولعل عددهم مائة فارس.

تسكن مسلم مفازة مسيلة الممتدة نحو مملكة بجاية، ويأخذون اتاوات من مسيلة وبعض القرى.

---

(50) ما تزال مساكن قبيلة صبيح معروفة وعامرة حتى اليوم شمال مدينة القنيطرة.

تقيم رياح بقفار ليبيا جنوبي قسنطينة، وتمتد سلطتهم على جزء من نوميديا، وينقسمون إلى ستة أفخاذ كلهم أبطال حرب نبلاء مجهزون أحسن تجهيز، وتصلهم إعانات مالية من ملك تونس، وعددهم خمسة آلاف فارس.

تقطن سويد القفار الممتدة نحو مملكة تنس، ولهم صيت بعيد وسيطرة واسعة وأجور يتقاضونها من ملك تنس، وهم شرفاء شجعان يمتلكون كل ما يحتاجون إليه.

تخضع أسجع لقبائل مختلفة من الأعراب، ويسكن معظمهم مع العمارنة في صحراء كرط، في حين يقيم فريق آخر منهم مع أعراب دكالة في نواحي آسفي(51).

يقيم الحارث بسهول حاحا(52) مع الشياظمة، ويتقاضون خراجاً من أهل حاحا، وهم ضعفاء.

يسكن النضر(53) كذلك سهول حاحا. وجميع هؤلاء الأعراب المقيمين بحاحا نحو أربعة آلاف فارس، كلهم سيؤو التجهيز هؤلاء وأولئك.

وتوجد كرفة في مواطن مختلفة بدون رؤساء، ويختلطون مع المنابهة والعمارنة، وهم الذين يحملون التمر من سجلماسة إلى مملكة فاس، ومنها يحملون الأقوات الضرورية لسجلماسة.

---

(51) هم سكان مدينة الغربية الخربة اليوم.

(52) ورد هذا الاسم محرفاً في الترجمة الفرنسية هنا هكذا (حلين) وقد كرر بعد ذلك مرتين باسم حاحا وهو مايقتضيه السياق.

(53) انقرضوا.

مواطن معقل وعددهم

تسكن روحة، وهم فرع من مختار، الصحاري المجاورة لدادس وفركلة. وهم فقراء لا يملكون إلّا قليلاً من الأرض، غير أنهم شجعان يحاربون وهم راجلون، حتى ليعتبر من العار عندهم أن ينتصر فارسان على راجل واحد. ولا يوجد من بينهم أحد مهما كان بطيئاً لا يمكنه أن يسرع في سيره إسراع أي فارس كيفما كان طول الطريق. وهم نحو خمسمائة فارس وثمانية آلاف راجل، ونعني بذلك رجال الحرب منهم(54).

يقيم بنو سليم قرب نهر درعة ويتنقلون عبر الصحراء. وهم أثرياء يذهبون كل سنة ببضائعهم إلى تنبكتو، ولهم بدرعة ممتلكات عديدة وأرض كثيرة للحرث وعدد وافر من الإبل. ويبلغ عددهم نحو أربعة آلاف فارس.

يقطن بنو حسين بساحل المحيط على تخوم ماسة، وهم نحو خمسمائة فارس تجهيزهم سيّىء جداً. ويقيم بعضهم بأزغار رعايا لملك فاس، بينما يتمتع الأولون بالحرية ولا يخضعون لأحد.

تسكن كنانة مع الخلط وتخضع كذلك لسلطة ملك فاس. وهم أشداء لديهم كل ما يحتاجون إليه، وعددهم ألفا فارس.

وينقسم ذوو حسين إلى دليم، وبرابش، وأوداية، وذوي منصور، وذوي عبيد الله(55).

---

(54) ما يزال أعراب روحة مجتمعين في بعض قصور درعة عارفين أصلهم العربي، لكنهم لا يتميزون اليوم عن سكان القصور الأخرى، فلم تبق لهم خيول ولا أية صفة مما ذكره المؤلف هنا.

(55) كرر المؤلف تقسيم ذوي حسين مخالفاً ما سبق أن ذكره في الفصل السابق عن أصناف الأعراب المتبربرين، فذوو منصور وذوو عبيد الله هنا وضعا موضع الرحامنة وأحمر هناك.

تساكن دليم الصنهاجيين الافريقيين في صحراء ليبيا، وليست لهم قيادة ولا يتقاضون أي أجر، فهم لذلك صعاليك ولصوص، كثيراً ما يأتون إلى درعة ليستبدلوا بمواشيهم التمر، ويرتدون أرذل لباس. يبلغ عددهم عشرة آلاف رجل، أربعمائة منهم فرسان والباقي راجلون.

يسكن البرابش أيضاً صحراء ليبيا في قسمها الموالي لإقليم سوس، وهم كثيرون وضعفاء، لكن لديهم كثير من الإبل، يحكمون تشيت التي لا تكفيهم حتى لتصفيح حوافر خيولهم القليلة.

تقطن الأوداية الصحاري الواقعة بين وادان وولاتة، ويبسطون نفوذهم على السودانيين، ولا يكاد يحصى عددهم. ويقدر المقاتلون منهم بسبعين ألف رجل لكن ليس لهم إلاّ عدد قليل من الخيل.

يسيطر الرحامنة(56) على الصحراء المجاورة لأقا، وكذلك على تشيت التي اعتادوا الذهاب إليها كل شتاء، وخيولهم هم أيضاً قليلة.

تسكن أحمر صحراء تكانوت(57) ويتلقون بعض الإعانات المالية من سكان قرية تكاووست، ويتنقلون في الصحراء إلى واد نون، ويبلغ عدد محاربيهم نحو ثمانية آلاف رجل.

ذوي منصور

يقيم العمارنة، وهم فرع من ذوي منصور، في الصحاري المجاورة لسجلماسة، ويتنقلون في صحراء ليبيا إلى ايكيدي(58)، ويتقاضون الخراج من أهل سجلماسة وتدغة وتبلبالت ودرعة. يملكون واحات كثيرة تمكّنهم

---

(56) نقلوا بعد ذلك إلى شمال مراكش حيث ما يزالون هناك لحد الآن.

(57) لعلها تكاووست.

(58) معناه الرمل، ويقع في جنوب تفيلالت.

من العيش كأمراء، ويتمتعون بصيت كبير. فرسانهم نحو ثلاثة آلاف رجل. ويوجد من بينهم عدد وافر من أجلاف الأعراب، لكنهم يملكون كثيراً من الخيل والماشية، أمثال كرفة وأسجع.

وللعمارنة فرقة خاصة يمتد سلطانها على بعض الأراضي الزراعية الواقعة بنوميديا(59) ويتنقل أفرادها حتى صحراء فجيج، وتمدهم أراضيهم الزراعية وقراهم النوميدية بمداخيل كثيرة مهمة. ويأتي هؤلاء الأعراب في الصيف للمقام بإقليم كرط على تخوم القسم الشرقي لموريطانيا. وهم نبلاء في غاية الشجاعة، لذلك اعتاد ملوك فاس أن يتخذوا كلهم تقريباً زوجاتهم من بنات هؤلاء الأعراب ويربطوا معهم وشائج القربى.

يسكن المنابهة هم أيضاً صحراء فجيج، وتمتد سيطرتهم على مطغرة والرتب من أقاليم نوميديا. وهم كذلك شجعان يأخذون بعض الإعانات المالية من سكان سجلماسة، ويبلغ عدد فرسانهم نحو ألفي رجل.

تنتمي قبيلة حسين هي أيضاً إلى ذوي منصور، وتساكن الجبليين في الأطلس. وتساهم بتقديم عدد من رجالها كسادة لكثير من الجبال الآهلة بالسكان والمدن والقصور التي أقطعهم إياها مختلف ملوك بني مرين، جزاء لما قدمته لهم هذه القبيلة من عون فائق في بداية دولتهم. وتباشر حسين سلطتها فيما بين مملكة فاس وسجلماسة، ويحكم رئيسهم مدينة تدعى كرسلوين(60). وينتقلون أيضاً في صحراء الظهرة(61) وهم أثرياء أقوياء، يبلغ عدد فرسانهم نحو ستة آلاف رجل، وغالباً ما يوجد من بينهم أعراب آخرون، لكنهم يعدون من أتباعهم.

---

(59) لعله يقصد بلاد البربر.

(60) تحمل أنقاضها حالياً اسم دوار، وتقع على ضفة نهر زيز في منطقة كير.

(61) بين دبدو وفجيج.

وتقيم فرقة من حسين في صحراء الظهرة هذه، لا يملكون غير القليل، ويعيشون في فقر مدقع لا يتمكنون معه حتى من المقام تحت خيامهم في هذه الصحراء. صحيح أن يقال انهم تمكنوا من الحصول على ممتلكات صغيرة في صحراء ليبيا، لكنهم يعيشون هنالك متضورين من الجوع، ويؤدون اتاوات لقومهم الآخرين.

ذوي عبيد الله

تكون خراج قسمًا من ذوي عبيد الله، ويسكنون في صحراء بني كومي(62) وفجيج. لهم أراضٍ زراعية كثيرة بنوميديا، وإعانات مالية يتلقونها من ملك تلمسان الذي لا يكاد يفتر في الحرص على حملهم على أن يعيشوا عيشة مسالمة شريفة، لأنهم لصوص يكادون يفتكون بكل من تصل إليه أيديهم. وهم نحو أربعة آلاف فارس، من عادتهم أن يرحلوا إلى نواحي تلمسان في فصل الصيف.

كانت ثعلبة تسكن سهل الجزائر وتتنقل في الصحراء حتى تكديت(63)، ولهم سيطرة على مدينتي الجزائر ودلس، لكن في وقتنا هذا انتزعهما منهم بربروس وبويع ملكاً، فدمّرت ثعلبة وكانت ذات شرف وشجاعة، يبلغ عدد فرسانها ثلاثة آلاف رجل.

تسكن الهدج صحراء مجاورة لتلمسان تدعى أنكاد، ليس لهم ممتلكات ولا إعانات، ولا يعيشون إلا على القتل والنهب، وهم نحو خمسمائة فارس.

تسكن جعوان في فرقتين، إحداهما مع الخراج والأخرى مع الهدج، لكنهم شبه رعايا لهم، وجعوان راضية بذلك.

---

(62) تقع قصور بني كومي على ضفاف نهر زوزفانة، وأهمها تغيت.

(63) لعله يقصد توات البعيدة عن الجزائر، وربما قصد تكدمت القريبة من تاهرت في منطقة سوسو.

والآن ينبغي القول ان الشعبين الأولين، أعني حكيمًا وهلالاً، من عرب نجد وينتسبون إلى اسماعيل بن ابراهيم (عليهما السلام) وأن الشعب الثالث ـ معقل ـ من اليمن وينتسب إلى سبأ. ويعتبر المسلمون آل اسماعيل أشرف من السبئيين، لذلك فإنه لما كانت القبائل لا تنقطع عن التنافر، نظم شعراء كل فريق قصائد منافرة يذكرون فيها مفاخر قومهم وفضائلهم وأمجادهم.

ولا بأس أن نعرف أيضاً أن العرب الأقدمين الذين عاشوا قبل ظهور اسماعيل كانوا يعرفون عند المؤرخين الأفارقة بالعرب العاربة، نسبة إلى جزيرة العرب. ويعرف العرب المنتمون إلى اسماعيل بالعرب المستعربة، أي الذين تعرّبوا عرضاً، لأنهم لم يولدوا عرباً. وأما الذين جاؤوا إلى افريقيا فيدعون بالعرب المستعجمة والعرب المتبربرة، لأن لغتهم فسدت مع طول الزمن لمساكنتهم أمة أجنبية فأصبحوا برابرة.

ويحسن الرجوع إلى تاريخ العرب لابن خلدون الذي ألفّ كتاباً ضخماً خصّص كله تقريباً لأنساب العرب المتبربرة، ولم يعلق منه بذاكرتي الضعيفة إلا ما يقرأ هنا، لأنني منذ أكثر من عشر سنين خلت، لم يقع بصري على أي كتاب في تاريخ العرب. إلا أنني رأيت تقريباً جميع القبائل العربية الآنفة الذكر، وتحدثت إلى أفرادها، وعلق بذهني بعض خصائصها.

عادات الأفارقة القاطنين بصحراء ليبيا وطرق عيشهم

إن الشعوب الخمسة التي ذكرناها، وهي صنهاجة، وونزكة، وتاركة، ولمطة وبردوة، تعرف كلها عند اللاتينيين بالنوميدية(64) ويعيش جميع أفرادها بنفس الطريقة، دون أية قاعدة ولا منطق.

---

(64) الواقع أن اللاتينيين كانوا يطلقون اسم النوميديين على سكان شمال تونس والشمال الشرقي لإقليم قسنطينة الحالي. وكان في الجنوب الجتول والكرمانت بمنطقة فزان. ويبدو أن الصحراويين لم يطلق عليهم أي اسم خاص.

يتركّب لباسهم من عباءة ضيقة من الصوف الخشن، ويضع كل واحد منهم على رأسه أو يلف حول وجهه قطعة من النسيج الأسود على شكل عمامة. ويتميز الأعيان والأشراف عن غيرهم بقميص طويل عريض الأكمام من القطن الأزرق يبيعهم إياه تجار يأتون من أرض السودان. ولا يركبون غير الإبل يتخذون لها سروجاً خاصة يضعونها بين أسنمتها وأعناقها. ومنظر هؤلاء القوم على ظهور إبلهم جميل، يضعون أحياناً رجلاً على رجل فوق عنق الجمل، ويجعلون أرجلهم في سير بلا ركاب تارة أخرى، ويتخذون مهمازاً على رأس قضيب طوله ذراع، لكنهم لا يخزون به غير كتفي الدابة. وأنوف الجمال المعدة للركوب كلها مثقوبة على نحو بعض الجواميس بايطاليا، فيدخل في الثقب سير يقاد به الجمل كما يقاد الفرس باللجام.

ينام هؤلاء القوم على حصر من السمار الرقيق جداً، ويصنعون خيامهم من نسيج وبر الإبل وتلك الألياف الخشنة التي تنبت بين جذوع النخل. أما غذاؤهم فإن من لم يرهم لا يصدق مدى صبرهم على الجوع، ليس من عادتهم أن يأكلوا الخبز ولا أي طعام مطبوخ، ويقتاتون بلبن نوقهم. تعودوا أن يشربوا في الصباح ملء إناء كبير من اللبن الساخن فور ما يحلب، وأن يتعشوا في المساء بالقديد المطبوخ في اللبن المدهون بالسمن، فإذا نضج اللحم تناول كل واحد نصيبه بيده وأكله ثم شرب المرق مستعملاً يده كالملعقة. وحسا أخيراً فنجاناً من اللبن وقد تمّ العشاء. وما دام عندهم اللبن فلا حاجة لهم بالماء لا سيما في فصل الربيع، حيث لا يغسل بعضهم أيديهم ولا وجوههم إطلاقاً. وسبب ذلك أنهم لا يقصدون أثناء تلك المدة مواقع الماء، لأن لديهم اللبن أولاً، ولأن الإبل عندما ترعى العشب لا تحتاج إلى الماء ثانياً.

يقضي هؤلاء الرحالة حياتهم كلها حتى الموت في الصيد واختطاف

جمال أعدائهم، ولا يقيمون في أي موطن أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة ريثما ترعى إبلهم كلأه.

ورغم ما قلناه من أن هؤلاء القوم لا يخضعون لأي قانون ولا شرع، فإن لهم جميعاً أميراً شبه ملك يعظّمونه ويخضعون له تمام الخضوع. وهم أميون يجهلون كل شيء لا الأدب فحسب، ولكن أيضاً الفنون وجميع المعارف، لا يكاد يوجد في قبيلة بأسرها قاض يستطيع أن يفصل في نازلة، بحيث إن من تورط منهم في خصام أو كان ضحية لجريمة لزمه أن يسافر مسافة خمسة أيام أو ستة على الجمل ليصل إلى خيمة القاضي. وهذا الجهل ناتج عن كون هؤلاء القوم لا يخصصون أي وقت للدراسة، ويمتنعون من مغادرة صحاريهم في طلب العلم. ولا يأتي القضاة إلى هؤلاء الرعاع إلا مكرهين، إذ لا يستطيعون تحمّل عاداتهم وطريقة عيشتهم، غير أن من يأتي منهم يتقاضى أجراً حسناً، فيعطى كل قاضٍ ألفي دينار(65) كل سنة، أو أكثر أو أقل، بحسب مقدرة القاضي المسكين.

يضع أشراف هؤلاء القوم على رؤوسهم كما قلت فيما سلف لثاماً أسود يحجبون بطرف منه وجوههم التي لا يرى منها غير العينين، ولا ينزعون اللثام أبداً، بحيث إنهم كلما أرادوا الأكل وأخذوا لقمة من الطعام كشفوا عن أفواههم ثم غطوها في الحين. ويعللون هذه العادة بقولهم ان المرء يخجل لإدخال الطعام خجله من إخراجه.

ونساؤهم ممتلئات لحمًا وشحمًا، لكنهن غير شديدات البياض، أردافهن غليظة سمينة، ونهودهن بارزة، بيد أن خصورهن في غاية الرقة، يتحدثن بظرف ويمددن أيديهن عن طيب خاطر، وقد يسمحن للرجال بلثمهن، لكن تعدي ذلك الحد خطير يؤدي إلى اقتتال الرجال بضراوة

---

(65) إذا كان المؤلف قارن الدوكة الايطالية بالدينار العربي أو المثقال، فإن الدوكة الرائجة في عهد البابا كليمان السابع وهو الوقت الذي كان الحسن الوزان يؤلف فيه هذا الكتاب ــ كانت تزن 3,532 غرام ذهباً.

متناهية، فهم في ذلك أعقل من بعضنا، لا يقبلون الخدعة في أعراضهم بأي ثمن.

وهؤلاء القوم في غاية الكرم مع أن الناس لا يمرون بمضارب خيامهم لجفاف أرضهم، ولأنهم هم أنفسهم لا يترددون على الطرق المطروقة. غير أن القوافل التي تقطع صحاريهم تؤدي حتمًا إلى أمرائهم اتاوة هي عبارة عن قطعة قماش تساوي ديناراً عن كل حمل جمل.

وقد مررت من ثم منذ سنوات في قافلة مع مسافرين آخرين(66). ولما وصلنا إلى سهل أروان جاء للقائنا أمير صنهاجة في خمسمائة رجل راكبين على الجمال.

وبعد أن أخذ منا الإتاوة، استدعى جميع من بالقافلة إلى الذهاب معه إلى خيامه، للاستراحة بها يومين أو ثلاثة أيام. ولما كان المخيم بعيداً عن طريقنا بنحو ثمانين ميلاً، وإبلنا محمّلة كثيراً، رفض التجار هذا الاستدعاء تفادياً لإطالة الطريق. عند ذلك قرر الأمير أن يتابع الجمالون السفر مع دوابهم ويصحبه التجار رغبة منه في مقامنا عنده.

وما كدنا نصل إلى الخيام حتى أمر ذلك الرجل الطيب بذبح عدد من الجمال الصغيرة والكبيرة، والغنم، وبعض النعامات التي اصطادوها في الطريق. ولما طلب التجار من الأمير ألا يذبح الجمال لأنهم لم يتعودوا أكل غير لحم الغنم، أجاب بأنه لا يجمل عندهم في الوليمة الاكتفاء بذبح الحيوانات الصغيرة، لا سيما ونحن غرباء ضيوف عنده. فأكلنا ما قدّم لنا، وأهمه لحوم مشوية ومطبوخة. حملوا إلينا اللحم على طاولة شرائح مفوهة متبلة بالأعشاب وبكمية كبيرة من توابل أرض السودان، وكان الخبز معجوناً من خالص دقيق الدخن والذرة. وفي الأخير وضعوا بين أيدينا تمراً كثيراً وصحوناً كبيرة مملوءة لبنا. وقد تفضّل الأمير فشرّف الوليمة بحضوره

---

(66) لعل ذلك كان حوالي عام 1512/918 أثناء سفر المؤلف إلى تنبكتو للمرة الثانية.

مع بعض نبلاء حاشيته وأقاربه، لكنهم أكلوا منعزلين عنا، وأحضر بعض الفقهاء والأدباء الذين كانوا هناك وأجلسهم بالقرب منه. وأثناء الغداء لم يتناول أي نوميدي خبزاً، وإنما أكلوا اللحم وشربوا اللبن فقط. وعندما لاحظ الأمير تعجبنا قدم لنا توضيحات بأسلوب ظريف مفادها أنه ولد في هذه القفار التي لا تنبت أية حبة، وأن الناس هنا يتغذون بما تنتجه أرضهم. وقال لنا انه يتزود كل عام بالحبوب لإكرام الغرباء الذين يمرون هناك. لكنهم في الواقع تعودوا أن يأكلوا الخبز أيام الأعياد الكبرى كعيدي الفطر(67) والأضحى.

وقد حرص الأمير على أن نقيم عنده يومين وأحاطنا بكل عناية وإكرام، وسمح لنا في اليوم الثالث بالانصراف، وأراد أن يشيعنا إلى أن نلتحق بالقافلة. ولا أخفي أن الأنعام التي أمر بذبحها لإطعامنا تساوي عشرة أضعاف ما قدمناه له من حق المرور. وقد لاحظنا من خلال أفعال الأمير وأقواله نبله وظرفه رغم أنه لا يفهم لغتنا ولا نفهم لغته، وإنما كانت محادثتنا معه بواسطة ترجمان.

وهذه العادات وطريقة المعاش التي ذكرت لكم عن هذا الشعب هي نفس ما يوجد عند الشعوب الأربعة الأخرى المتفرقة في سائر صحاري نوميديا.

عادات العرب القاطنين بإفريقيا
وطريقة معاشهم

تختلف عادات العرب وطريقة معاشهم باختلاف المناطق التي يقطنون بها. فعرب نوميديا وليبيا يعيشون عيشة بؤس وفقر مدقع،

---

(67) عبر المؤلف عن عيد الفطر بعيد الفصح الذي هو آخر أيام الصيام عند المسيحيين تقريباً لأفهامهم.

لا يختلفون في ذلك عن الشعوب الافريقية التي ذكرناها، إلا أنهم أكثر شجاعة منهم. يتجرون بالجمال في أرض السودان، ويملكون كمية وافرة من الخيول التي نسميها في أوربا الخيول المغربية. ويخرج هؤلاء العرب دائمًا لصيد الغزال، وحمار الوحش، والنعام، واللمت، والمها، وغيرها من الوحش.

ولا ينبغي أن يغفل القول بأن لمعظم عرب نوميديا كثيراً من الشعراء ينظمون قصائد مطوّلة تتحدث عن غارات حربهم وصيدهم، وتتطرق إلى الغزل بغاية الرقة والظرف. وأبياتهم مقفاة كأبيات الشعر الايطالي الشعبي. وهم كرماء لكن ليست لهم موارد تؤيد شهرتهم وتبين كرمهم، فهم يفتقدون كل شيء في هذه القفار. يشبه لباسهم لباس النوميديين، إلا أن نساءهم يرتدين حللاً تختلف قليلاً عن حلل النساء النوميديات.

كانت الصحاري التي يقطنها هؤلاء العرب في أيدي شعوب إفريقية. ولما دخلت القبائل العربية إلى افريقيا، أرغمت النوميديين على مغادرتها، واستقرت بالفلوات المجاورة للواحات، بينما تقهقر النوميديون ليسكنوا القفار المجاورة لأرض السودان.

أما العرب القاطنون بافريقيا بين الأطلس والبحر المتوسط(68)، فإنهم أكثر هناء وغنى من العرب المذكورين آنفاً، لا سيما فيما يخص اللباس، وأسراج الخيول، وجمال الخيام وعظمتها. يملكون خيولاً أحسن بكثير من خيول الصحراء، إلا أنها أقل منها سرعة عند السباق. ويحرث هؤلاء العرب أرضهم فيحصلون منها على كمية وافرة من الحبوب ويكسبون عدداً لا يحصى من الغنم والبقر، الأمر الذي جعلهم لا يستقرون في مكان واحد لعدم وجود أرض كافية لرعي هذه الأعداد الوافرة من الماشية. وهم أكثر وحشية وخيانة من عرب الصحراء، إلا أنهم

---

(68) لعله يقصد بلاد البربر كلها.

كرماء. من يسكن منهم مملكة فاس يخضع لملكها ويؤدي له الخراج. وقد عاش عرب نواحي مراكش ودكالة مدة من الزمن محررين من كل الكلف المخزنية إلى أن احتل البرتغاليون أسفي وأزمور (69)، فثارت الفتن بين القبائل وتفرقوا حزبين، دمر ملك فاس(70) أحدهما، وقضى ملك البرتغال(71) على الحزب الآخر، كما نالت المجاعة السائدة في افريقيا تلك السنة منهم كثيراً، إلى أن هاجر العرب المساكين عن طواعية إلى البرتغال يعرضون أنفسهم كعبيد لمن يعولهم، حتى لم يبق منهم أحد بدكالة(72).

لكن العرب المقيمين بالصحاري المجاورة لمملكتي تلمسان وتونس يعيشون جميعاً مثل سادتهم. فكل أمير يتوصل من الملك بإعانات مالية ضخمة يوزعها على قبيلته ليتقي الفتن ويعيش معهم في سلم وعلاقة ودية. ويحب هؤلاء العرب اللباس الجميل، واكتساب الخيل الفارهة المسرجة، والخيام الكبيرة الرائعة. ومن عادتهم أن يذهبوا صيفاً إلى ضواحي تونس ليتزودوا منها، وفي شهر أكتوبر يقتنون كل ما يحتاجون إليه من طعام ولباس وسلاح، ويرجعون إلى الصحراء ليقضوا فيها الشتاء. وفي الربيع يتسلون بالصيد بالكلاب والصقور، يصيدون جميع أنواع الحيوانات ذات الشعر أو الريش.

أقمت عندهم مراراً واقتنيت أشياء كثيرة، ولاحظت أنهم يملكون في خيامهم من الثياب والنحاس أكثر مما يملكه الحضريون، غير أنهم لا يؤتمنون لعدم تورعهم عن النهب والقتل، رغم مجاملتهم البالغة.

---

(69) كان احتلال آسفي عام 1501/914، واحتلال آزمور في 2 رجب 3/919 شتنبر 1513.

(70) هو أبو عبد الله الوطاسي المعروف بالبرتغالي.

(71) هو عمانويل الأول.

(72) لم تكن الحالة الاقتصادية سيئة حسب الوثائق البرتغالية، ولا شك أن الهجرة كانت محدودة لم تشمل غير جماعة من الفقراء، إذ لا تزال هذه القبائل العربية تقيم في مواطنها المعروفة بدكالة إلى أيامنا هذه.

إنهم يحبون الشعر وينشدون بلهجتهم العامية أبياتاً رائعة جداً، ولو أن هذه اللغة تعتبر اليوم فاسدة. وقد ينال شاعر مشهور إعجاب الأمراء، فيمنحونه صلات هامة. ولا استطيع أن أعرب لكم عن مدى صفاء أشعارهم ورقتها. أما نساء هؤلاء العرب فيرتدين لباساً حسناً حسب عادة البلاد، وهو قميص أسود واسع الأكمام، يجعلن فوقه خماراً أسود أو أزرق يلتحفن به ويجعلن هدبه على أكتافهن من أمام ومن خلف، حيث يمسك بمشبك فضي مصنوع بطريقة فنية. ويضعن أقراطاً عديدة من الفضة كذلك في آذانهن، وخواتم في أصابعهن، وأساور في أيديهن وخلاخل في أرجلهن على عادة الأفارقة.

تضع هؤلاء النساء أمام وجوههن ثوباً صغيراً مثقوباً أمام العيون، فإذا رأين رجلاً ليس من أهلن، احتجبن فوراً بهذا اللثام، وأمسكن عن الكلام، فإذا انفردن بأزواجهن وذويهن رفعن اللثام.

ولما كان العرب يرحلون من مكان إلى آخر، فإنهم يحملون نساءهم على هوادج كالسلال تغطى بزرابي جميلة جداً. وهذه الهوادج صغيرة لا يسع الهودج إلا امرأة واحدة. ويصطحبون نساءهم في حروبهم لتزداد شجاعتهم ويقل خوفهم.

ومن عادة هؤلاء النساء أنهن، قبل الزفاف إلى أزواجهن، يخضبن بالحناء وجوههن وصدورهن وأذرعهن وأيديهن إلى رؤوس الأصابع، لأن ذلك مستحسن عندهن. وقد اتخذ العرب المستعجمة هذه العادة عندما انتقلوا إلى سكنى هذه البلاد الافريقية، ولم تكن معروفة لديهم من قبل، غير أن الحضريين وأشراف البلاد لم يتبعوا هذه العادة، وبقيت نساؤهم محتفظات ببياضهن الطبيعي، وإنما يستعملن في بعض الأحيان خضاباً مصنوعاً من عتن لوز العصفة والزعفران، ويرسمن به في وسط خدودهن زينة مستديرة تشبه الدينار، وبين الحاجبين شكلاً مثلثاً، وعلى الذقن شبه ورقة الزيتون، وتخضب به بعضهن الحواجب كاملة، يمدح الشعراء العرب والأشراف هذه

العادة، وتراها النساء أنيقة وجميلة، غير أنهن لا يحتفظن بهذه الزينة أكثر من يومين أو ثلاثة، لأنهن لا يستطعن البروز إلى أقاربهن بتلك الحال، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو أبنائهن. ويفعلن ذلك ليكن أكثر جاذبية، متوهمات أن تلك الزينة تزيد كثيراً من جمالهن.

العرب الذين يسكنون الصحاري الواقعة بين بلاد البربر ومصر

يعيش هؤلاء العرب عيشة فقيرة، لأن البلاد التي يسكنونها قاحلة وعرة، ويكسبون الغنم والجِمال، لكنها لا تنتج إلا القليل لقلة المرعى. لذلك كلما أوغلت في أرضهم وأبعدت لم تجد بقعة صالحة للزراعة. ومع ذلك فإن في هذه الصحاري مجموعات صغيرة تشبه الضيعات أو القرى بجوار واحات صغيرة جداً. وهناك يزرع القمح لكن بكميات قليلة لا تكاد تذكر. لذلك فإن سكان هذه القرى كثيراً ما يزعجهم العرب ويثقلون كواهلهم بالأعمال، يأتون إليهم مراراً ليستبدلوا القمح بإبلهم وغنمهم، لكن القمح لا يكفي لمثل أعدادهم. لذلك تجد في كل وقت العديد من أولاد هؤلاء العرب عند الصقليين كرهائن للقمح الذي يأخذونه منهم. وفي حالة عدم الوفاء بالدين عند انتهاء الأجل المحدد يحتفظ الدائنون بالأطفال كرقيق لهم. وإذا رغب الآباء في افتدائهم بعد ذلك لزمهم أداء ثلاثة أضعاف مبلغ الدين، فيضطرون إلى تركهم لهم. وهذا ما جعل هؤلاء العرب أقبح الفاتكين على وجه الأرض، يجرِّد كل غريب وقع بين أيديهم من جميع ما عنده ثم يباع للصقليين، حتى إنه منذ مائة سنة لم تمر أية قافلة بالساحل المحاذي للصحراء التي يعيش فيها هؤلاء القوم. وإذا أرادت قافلة أن تخترق البلاد، مرت من الداخل على بعد نحو خمسمائة ميل من البحر.

وقد سلكت سبيل البحر على طول الساحل مع ثلاث سفن تجارية

تفادياً لخطر ملاقاة هؤلاء القوم(73) ولما بصر بنا الأعراب، سارعوا إلى المرسى، مدعين أنهم يرغبون في التعامل معنا بتجارة رابحة، لكن أحداً لم يقبل النزول إلى البر خوفاً منهم قبل أن يسلموا إلينا بعض أولادهم على سبيل الاحتياط. وقد اشترينا قليلاً من غنمهم وسمنهم، ثم ولينا مسرعين آملين ألا يلاحقنا قراصنة صقلية أو رودس.

الشاوية أو رعاة الشاء
شعب إفريقي يعيش عيشة العرب

تشتغل كثير من القبائل الافريقية بتربية الغنم والبقر، ولا تعمل أي عمل آخر طول النهار. يسكن معظمهم في سفح الأطلس وفي الجبل، ويؤدون الخراج أينما وجدوا للملك أو للعرب، باستثناء سكان تامسنا فإنهم أحرار ذوو شوكة يتكلمون اللغة الافريقية، ويتحدث بعضهم باللغة العربية لمجاورتهم للعرب وعلاقاتهم معهم، كسكان بوادي الأربيوس في ضواحي تونس. وهناك جماعة أخرى تقيم في التخوم بين تونس وبلاد الجريد(74)، وكثيراً ما تجرؤوا على ملك تونس وأعلنوا الحرب ضده كما حدث منذ بضع سنوات. وكان إذ ذاك ابن ملك تونس قد خرج من قسنطينة لجباية الخراج منهم، فهجم عليه أميرهم معترضاً طريقه بألفي فارس، فهزم الجند وقتل ابن الملك واستولى على محلته، وكان ذلك عام 915 للهجرة، وأصبح اسم هذه القبيلة مشهوراً منذ هذه الهزيمة وسار بذكرها الركبان، وفر عدد كثير من العرب الذين كانوا يخدمون ملك تونس من المناطق الخاضعة له، وذهبوا ليسكنوا مع المنتصرين، بحيث صار هذا الأمير من أكبر سادة أفريقيا وأشهرهم.

---

(73) لعل ذلك كان أثناء رجوعه الأخير من مصر.

(74) يعني شاوية الأوراس في جنوب شرقي إيالة قسنطينة القديمة.

ديانة قدامى الأفارقة

كان الأفارقة في الزمن القديم وثنيين على غرار الفرس الذين يعبدون النار والشمس، ويتخذون لعبادتها معابد جميلة مزخرفة توقد داخلها نار تحرس ليل نهار حتى لا تنطفىء، كما كان يفعل ذلك في معبد الإلهة «فيستا» عند الرومان. ذلك مالا تفتأ تواريخ الأفارقة والفرس تتحدث عنه. ومن المعلوم أن أفارقة نوميديا وليبيا كانوا يعبدون الكواكب ويقربون إليها القرابين، وأن بعض الأفارقة السود كانوا يعبدون «كيغيمو» ومعناه في لغتهم رب السماء. وقد أحسوا بهذا الشعور الحسن دون أن يهديهم إليه أي نبي أو عالم. وبعد ذلك اعتنقوا الديانة اليهودية طوال سنين عديدة إلى أن أصبحت بعض الممالك مسيحية فدانوا بالمسيحية وأخلصوا لها إلى أن قامت بعض الفرق الإسلامية عام 268 للهجرة، فجاء بعض المسلمين دعاة في هذه المناطق وأقنعوا هؤلاء الأفارقة باعتناق دينهم حتى أصبحت الممالك السود المتاخمة لليبيا مسلمة(75). غير أنه لا تزال بعض الممالك، بقي فيها السود متمسكين بالمسيحية إلى الآن ماعدا اليهود منهم وحدهم فقد حطمهم جميعاً المسيحيون والافريقيون. أما سائر السودانيين الذين يقطنون بساحل المحيط فما زالوا وثنيين يعبدون الأصنام، وقد رآهم عدد كثير من البرتغاليين وكانت لهم معهم بعض العلاقات الخارجية.

وظل سكان بلاد البربر وثنيين مدة طويلة من الزمن، واعتنقوا المسيحية قبل مولد محمد (عليه السلام) بمائتين وخمسين سنة، ذلك لأن

---

(75) لعل المؤلف يشير هنا إلى حركة الفاطميين بالمغرب الأدنى، وقد صاحبت حركتهم الشيعية دعوة إلى الإسلام في المناطق الجنوبية التي امتد إليها نفوذهم. لكن الدولة الفاطمية تبتدىء عام 296 ولم يكن لها وجود عام 268. ولعل تحريفاً وقع في الأرقام فكان الأصل 68 أو 62 وهو يوافق تاريخ الولاية الثانية لعقبة بن نافع الفهري الذي توغّل في الجنوب ونشر الإسلام بين الملثمين وبعض السودان.

انظر: أ. الناصري، **الاستقصا**، 1:72-75؛ حسن ابراهيم حسن، **انتشار الإسلام والعروفة**، ص: 46-49.

المنطقة التي تقع فيها تونس وطرابلس كانت تحت سيطرة بعض أمراء بوي وصقلية، بينما كان ساحل القيصرية وموريطانيا خاضعاً لملوك القوط(76)، وفي نفس الوقت أيضاً هرب عدد كثير من الأمراء المسيحيين أمام هيجان القوط وتركوا بلادهم الجميلة ليسكنوا ضواحي قرطاج حيث كونوا لأنفسهم ممتلكات بعد ذلك. ومن المعلوم أن هؤلاء المسيحيين كانوا على مذهب الأريوسيين الذين ينتسب له سان أوجستان(77). ولما جاء العرب ليفتحوا بلاد البربر وجدوا المسيحيين يملكون هذه المناطق فحاربوهم مراراً وأبى الله إلا أن يكون النصر حليف العرب، فهرب الآريون بعضهم إلى إيطاليا وبعضهم إلى إسبانيا(78).

وبعد مرور نحو مائتي سنة على وفاة محمد (عليه السلام) أصبح سكان بلاد البربر مسلمين إلا القليل منهم. ومن المعلوم أنهم ثاروا أكثر من مرة وارتدوا وقتلوا أئمتهم وولاتهم، غير أن الخلفاء عجلوا بإرسال الجنود لقتال البربر كلما علموا بهذه الثورات، واستمر ذلك إلى أن جاء الشيعيون الفارون من الخلفاء ودخلوا إلى بلاد البربر، فتمكن الإسلام حينئذٍ في هذه البلاد بصفة نهائية(79).

غير أنه كان عند البربر وما زال عدد كثير من البدع والفرق المختلفة، وآمل بعون الله تعالى أن أدرس مسألة الديانة الإسلامية دراسة

---

(76) لا تعرف بالضبط مراحل انتشار الديانة المسيحية في بلاد البربر، ويعني المؤلف بالقوط الوندال.

(77) غلط المؤلف هنا لعدم اطلاعه على الديانة المسيحية، فقد كان سان أوجستان ضد الآريين بعكس ما ذكر المؤلف.

(78) فرَّ الآريون فعلاً وهم الوندال لكن في أوائل سنة 534 م.

(79) يشير إلى دور الإمامين ادريس الأول وابنه ادريس الثاني في نشر الإسلام بين البربر. وقد جاء ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى المغرب فاراً من العباسيين في وقعة فخ الشهيرة عام 788/172 حيث بويع ملكاً بالمغرب في نفس السنة، ثم خلف ابنه ادريس الثاني واستمر ملكه إلى عام 828/213.

شاملة فيما يتعلق بهذه النقط المهمة والاختلافات المشاهدة فيها بين مسلمي افريقيا وآسيا، وذلك في كتاب آخر بعد أن يتم تأليف هذا الكتاب.

الكتابة المستعمَلة عند الأفارقة

يعتقد المؤرخون العرب اعتقاداً جازماً أنه لم تكن للأفارقة كتابة اخرى غير المرسومة بالحروف اللاتينية، ويقولون ان العرب عندما فتحوا افريقيا لم يجدوا فيها غير الكتابة اللاتينية. وهم يعترفون بأن للافارقة لغتهم الخاصة، لكنهم يلاحظون أنهم يستعملون عادة في كتابتها الحروف اللاتينية، كما يستعمل الألمانيون ذلك في أوربا. وجميع ما عند العرب من كتب التاريخ المتعلقة بالأفارقة مترجمة من اللغة اللاتينية، وهي مؤلفات قديمة كتبت ولا شك أيام الآريين وغيرهم من قبل، وأسماء مؤلفيها معروفة عندنا إلا أنها غابت عن ذهني. وأظن أن هذه الكتب طويلة جداً لأن مترجميها تعودوا أن يقولوا: «إن المسألة الفلانية معروضة في ستين جزءاً»، ولم يترجم العرب في الحقيقة هذه الكتب بحسب الترتيب الذي وضعه لها مؤلفوها، وإنما كتبوا قائمة مختصرة للملوك رتبوا عليها الحقب الخاصة بهم وبالأمراء، وقسموها بالموافقة مع تواريخ ملوك الفرس أو الأشوريين أو الكلدانيين أو الاسرائيليين.

وفي الوقت الذي كان حكم افريقيا بيد المبتدعة الفارين من خلفاء بغداد، أمروا بإحراق جميع كتب الأفارقة المتعلقة بالتاريخ والعلوم، متوهمين أن الإبقاء على هذه الكتب من شأنه أن يترك الأفارقة على نخوتهم القديمة ويدعوهم إلى الثورة والارتداد عن الإسلام.

ويذهب فريق آخر من مؤرخينا إلى أنه كانت للأفارقة لغة مكتوبة خاصة بهم، لكنهم افتقدوا هذه الكتابة(80) من جراء احتلال الرومان لبلاد

---

(80) لعله يشير إلى الكتابة الليبية ــ البربرية التي استمرت إلى وقتنا هذا عند الطوارق في شكلها الحديث (تيفيناغ)، أو تكون الإشارة إلى اللغة الفينيقية التي كانت منتشرة حول مدينة قرطاج وانتشرت في سائر جهات شمال افريقيا حتى بعد اضمحلال تلك المدينة.

البربر، وطول مدة حكم المسيحيين الذين فروا من إيطاليا، ثم القوط من بعدهم. والرعايا ملزمون في الواقع باتباع عادات حكامهم إن أرادوا إرضاءهم، وذلك ما حصل للفرس الخاضعين للعرب، فقدوا هم أيضاً كتابتهم وأحرقت جميع كتبهم بأمر من علماء المسلمين الذين ظنوا أن الفرس لن يكونوا مسلمين سنيين مخلصين ما دامت لديهم كتب في العلوم الطبيعية والقانون والديانة الوثنية، فأحرقوا جميع هذه الكتب ومنعوا العلوم(81). وذلك ما فعله أيضاً الرومان والقوط لما حكموا بلاد البربر كما أسلفنا.

ولعل في الدليل الآتي كفاية، ذلك أن بلاد البربر كلها، سواء منها مدن الساحل أو مدن الداخل، أعني المدن المشيدة قديماً، لا تحتوي على أية كتابة في الأضرحة أو في جدران أي بناء إلا وهي بالحروف اللاتينية دون استثناء. ولا أظن أن الأفارقة استعملوا هذه الحروف واتخذوها لكتابة لغتهم الخاصة، إذ لا شك أن الرومان لما انتزعوا هذه الأماكن من أيدي أعدائهم، محوا ــ حسب عادة المنتصرين ــ جميع النقوش الحاملة لآثار المغلوبين بخطهم الأصلي قصد إذلالهم، وجعلوا عوضها كتابتهم (الرومانية). وهكذا كانوا يقضون في آن واحد على كرامة الأفارقة وعلى كل ما يذكر بماضيهم حتى لا يتركوا شيئاً يذكر غير الشعب الروماني. وهذا ما أراد القوط أيضاً أن يفعلوه بالبنايات الرومانية، والعرب بالبنايات الفارسية، وذلك ما يفعله الأتراك اليوم في الأماكن التي يستولون عليها من يد المسيحيين، فهم لا يمتهنون ذكريات جميلة وشهادات طافحة بالشرف فحسب، ولكنهم يمتهنون أيضاً صور القديسين والقديسات في الكنائس(82)

---

(81) من المعلوم أن العرب أهملوا من الكتب القديمة ما كان ذا روح وثنية فقط كان أدباً أو علماً أو قانوناً، وترجموا كل ما عدا ذلك ودرسوه كما هو معروف.

(82) لم يكن ذلك عاماً، بل لاحظ بعض الكتاب المسيحيين عكس ما ذكره المؤلف، وذلك في كنيسة سان نيكولا بفماكوست التي حول وسطها إلى مسجد، وتركت صور القديسين في حالة جيدة. غير أن فماكوست بجزيرة قبرص لم ينتزعها الأتراك من يد البنادقة إلا في سنة 1571.

ألسنا نشاهد بروما نفسها في وقتنا الحاضر صرحاً عجيباً بدأ تشييده أحد الباباوات وصرف عليه مبالغ ضخمة لكنه مات دون إتمامه؟ فجاء خلفه وأمر بهدمه ليقيم بناء آخر مكانه، أو أمر بإتمامه ونزع شعار البابا الراحل ليوضع شعاره هو مكانه بدعوى أنه أضاف أشياء صغيرة إلى الصرح. وإذا تصرف تصرفاً لائقاً وترك شعار سلفه وضع شعاره هو فوقه بخط عريض وأحلَّه محل الشرف «بدقة متناهية». فليس من الغريب إذن أن تكون الكتابة الافريقية قد ضاعت منذ تسعمائة سنة التي يستعمل فيها الأفارقة الكتابة العربية. وتحدث الكاتب الافريقي ابن الرقيق في تاريخه طويلاً عما إذا كانت للأفارقة كتابة خاصة أم لا، وانتهى إلى القول بأنه كانت لهم كتابة، وأن من أنكر ذلك يمكنه أن ينكر أيضاً وجود لغة خاصة بهم، وأضاف أنه من المستحيل على شعب ذي لغة خاصة أن يستعمل في كتابته حروفاً أجنبية(83).

بقـــاع إفريقيـــا

كما تنقسم افريقيا إلى أربعة أقسام، يتميز كذلك كل قسم منها بطابع خاص. فساحل البحر المتوسط، من مضيق جبل طارق إلى تخوم مصر، كله جبال تمتد شطر الجنوب على مسافة تقرب من مائة ميل، تزيد في بعض النقط وتنقص في أخرى. وتوجد بين هذه الجبال وبين الأطلس سهول وتلال صغيرة، وتنبع في جميع جبال هذا الساحل عيون عديدة تتفرع عنها جداول صافية رائقة بديعة المنظر.

تمتد من وراء هذه السهول والتلال سلسلة الأطلس التي تبتدىء من

---

(83) يدل هذا على أن الكتابات الليبية والفينيقية وحتى الاغريقية لم تكن معروفة أيام المؤلف. ولن نعرف أبداً ما إذا كان بعض كتب خزانة ملك نوميديا هيامبسال في القرن الأول ق. م. كانت مكتوبة بالحروف الليبية، وهو شيء غير محتمل. ومهما كان الأمر فإن هذا الخط انتشر إلى الجزر الخالدات ووسط الصحراء وغربها، وتيفيناغ الطوارق فرع منه.

البحر المحيط غرباً وتنتهي شرقاً إلى قرب مصر. ونجد وراء الأطلس سهول نوميديا التي ينبت فيها النخيل، وهي بلاد تكاد تكون كلها رملية. بعدها تأتي صحاري ليبيا التي هي بدورها رملية وتمتد إلى بلاد السودان وتكثرفيها الجبال، غير أن التجار لا يقطعون هذه الجبال في طريقهم لوجود ممرات كثيرة واسعة مستوية بينها.

ومن وراء صحاري ليبيا بلاد السودان، ومعظمها سهل رملي، باستثناء ضفاف النيجر وسائر المراكز التي يمكن أن يصل إليها الماء ويبلل ثراها.

الأماكن الموحشة والثلجية في إفريقيا

يكون ساحل بلاد البربر كله والجبال الواقعة فيه منطقة باردة قبل كل شيء، وهناك فصل يسقط فيه الثلج، وتنبت في جميع هذه الجبال الحبوب والفواكه، لكن محصول القمح فيها قليل، لذلك يأكل الناس خبز الشعير في معظم السنة. ولماء تلك العيون طعم التراب ويكاد يكون عكراً لا سيما في الجزء الموالي لموريطانيا. وتوجد كذلك في هذه الجبال غابات كثيفة ذات أشجار ضخمة، معظمها مليء بالحيوانات النافعة والضارة.

أما التلال الصغيرة والسهول الواقعة بين هذه الجبال وبين الأطلس فتربتها طيبة تنبت كمية عظيمة من الحبوب والفواكه الجيدة. وتجري بين هذه التلال وخلال هذه السهول جميع الأنهر التي تنحدر من الأطلس لتصب في البحر المتوسط، إلَّا أن الغابات في هذه المنطقة قليلة. وأجود السهول ما امتد بين الأطلس والمحيط، كناحية مراكش وإقليم دكالة وجميع تادلا وتامسنا مع أزغار إلى مضيق جبل طارق.

والأطلس شديد البرد كثير الجدب، لا ينبت فيه إلَّا قليل من الحبوب، وتكسوه غابات كثيفة من كل ناحية، وتكاد تتكون فيه جميع أنهار

افريقيا. وعيون الأطلس غاية في البرودة حتى في غمرة الصيف بحيث إذا ترك الإنسان يده فيها مدة أتلفها التبريد. وليست جميع أطراف الجبل مجدبة بنفس الدرجة، إذ هناك أماكن يمكن أن يقال عنها بأنها معتدلة وصالحة ليتخذ فيها الإنسان مساكن حسنة للغاية، وهي بالفعل مسكونة حسبما سنفصل ذلك في القسم الثاني من كتابنا. والمناطق غير المسكونة (في الأطلس) إما قارسة البرد وإما شديدة الوعورة، فالتي تواجه تامسنا وعرة، والتي تواجه موريطانيا باردة. إلاَّ أن أهل الشاوية يعيشون في هذا الجزء من الأطلس أثناء الصيف لترعى فيه ماشيتهم، ويستحيل عليهم تماماً أن يمكثوا هنالك في فصل الشتاء، لأنه عندما يسقط الثلج تهب ريح خطيرة من الشمال تقتل كل الحيوانات التي تصيبها في هذه الناحية، وتقضي على الناس كذلك، إذ تمر من هناك الطريق المؤدية من موريطانيا إلى نوميديا(84) ولما كان التجار قد اعتادوا الذهاب من نوميديا(85) بأحمال التمر في آخر أكتوبر، فإن الثلج يفاجئهم أحياناً ولا يبقي منهم على أحد. ذلك أن الثلج إذا بدأ يسقط ليلاً أصبحت القافلة مدفونة تحته ومخنوقة. وليست القافلة هي التي يكسوها الثلج وحدها، بل يكسو الأشجار المحيطة بها أيضاً بحيث تتعذر رؤية الطريق وتختفي المعالم للعثور على الجثث. وقد نجوت أنا نفسي من خطر الموت بمعجزة مرتين عندما كنت أتردد على هذه الطرق ولن أزعجكم إذا ما قصصت عليكم إحدى هاتين المغامرتين.

كنا جماعة من التجار الفاسيين ذهبنا سوياً ووجدنا أنفسنا في الأطلس مع هذه القافلة (التي تسافر) في شهر أكتوبر. وعند غروب الشمس بدأ يسقط ثلج كثيف بارد، فاجتمع نحو عشرة أو اثني عشر من الأعراب الفرسان وعرضوا علي مغادرة القافلة والذهاب معهم للبحث عن مأوى حسن. لم أستطع رفض عرضهم، لكني خشيت أن يكون في الأمر مكيدة،

---

(84) هي الطريق المؤدية من فاس إلى تفيلالت.

(85) يعني تفيلالت.

ففكرت في التخلص من كمية مهمة من الدنانير كانت معي. ولما امتطى هؤلاء الرجال خيولهم وطلبوا مني أن أسرع إليهم تظاهرت بأني مستعجل لقضاء حاجة الإنسان واختفيت وراء شجرة، وهناك خبأت بكل ما أمكنني من عناية الدنانير وغطيتها بالتراب والحجر، ثم علمت الشجرة بدقة. سرنا ساكتين حتى قرابة منتصف الليل، فرأى أحد الأعراب أن الوقت قد حان ليفعلوا بي ما دبروه سلفاً، أي تجريدي من المال وتركي أهيم على وجهي. سألني هل عندي دنانير، فأجبته بأني تركتها في القافلة عند أحد أحبابي الأقربين. لم يصدقني الأعراب وألزموني لكي يعرفوا الحقيقة بأن أخلع حتى القميص مع هذا البرد القارس. ولما لم يجدوا شيئاً أخذوا يمازحونني مدعين أنهم قاموا بذلك بقصد التسلية ليعرفوا ما إذا كنت رجلاً قوياً قادراً على تحمل البرد. وتابعنا سيرنا في الظلام، والطقس الرديء والليل لا ينفكان يزعجاننا. وبعد مدة أنعم الله علينا بسماع ثغاء عدد كثير من الغنم، فوجهنا خيلنا نحوها. وكان ذلك الثغاء في وسط الغابة بين صخور عالية، فتعرضنا بذلك للخطر مرة أخرى. وأخيراً اكتشفنا عدداً من الرعاة في كهف كانوا قد أدخلوا نعاجهم فيه بعناء كبير، وأوقدوا ناراً جلسوا حولها، ولما رأونا وعرفوا الأعراب خشوا من أذاهم أولاً، ثم لما أيقنوا باستمرار العاصفة اقتبلونا بكل بشاشة وقدموا لنا ما كان لديهم من طعام خبزاً ولحماً وجبناً. ولما انتهينا من الأكل اضطجعنا حول النار ونحن ما زلنا نرتعد من البرد، لا سيما أنا الذي جردت من ثيابي فضلاً عما أصبت به من خوف. أقمنا يومين وليلتين مع هؤلاء الرعاة دون أن ينقطع نزول الثلج. وفي اليوم الثالث انقطع الثلج فقام الرعاة يزيلون الثلج الذي أغلق مدخل الكهف نهائياً، ثم ذهبوا بنا إلى المكان الذي خبؤوا فيه خيولنا، وهي كهوف أخرى تركوا فيها كثيراً من العلف لدوابنا فوجدناها على أحسن ما يرام. انصرفنا وقد أشرقت في ذلك اليوم شمس مضيئة أزالت برد الأيام السابقة، وشيعنا الرعاة إلى مسافة بضعة أميال ليدلونا على الممرات التي يعرفون أن الثلج فيها غير كثيف، ومع ذلك فإنه كان يصل إلى صدور خيلنا.

ولما وصلنا إلى قرية قريبة من مدينة فاس، أكدوا لنا بأن القافلة قد اختنقت بالثلج، وعند ذلك أيس الأعراب من أن ينالوا أجر أتعابهم، إذ كانوا يرافقون القافلة ليسهروا على أمنها، وأخذوا يهودياً كان معنا وله خمسون حملاً من التمر في القافلة، وذهبوا به إلى مخيمهم عازمين على أن يحتفظوا به إلى أن يؤدي عن الجميع، وسلبوا مني فرسي وتركوني في يد الله. اكتريت بغلاً له بردعة من النوع الذي يستعمله الجبليون، ووصلت في اليوم الثالث إلى مدينة فاس التي كان بلغها نعي رجال القافلة وظن أهلي أنني هلكت مع الهالكين، لكن ذلك أمر لم يقدِّره الله تعالى. والآن أتوقف عن حديث مغامراتي لأستأنف عرضي حيث تركته.

تقع وراء الأطلس بلاد جافة وحارة، توجد بها أنهر قليلة تنبع أيضاً من الأطلس وتجري نحو صحراء ليبيا حيث تختفي في الرمال، ويكون بعضها بحيرات. ليس بهذه البلاد سوى القليل من الأراضي التي يمكن زراعتها، لكن فيها كمية عظيمة من النخيل، وبعض أشجار الفواكه إلا أنها قليلة. وفي أجزاء نوميديا المتاخمة لليبيا جبال جرداء ليس عليها شجر، وفي سفوحها غابات كثيرة من الأشجار الشائكة التي لا تثمر، وليس هناك عين ولا نهر سوى بعض الآبار التي يكاد يجهلها الناس، وتقع كلها بين هذه التلال وتلك الجبال الخالية. وتكثر في جميع أراضي نوميديا الحيات والعقارب، وكثيراً ما يموت الناس من عضها ولسعها في فصل الصيف.

وليبيا هي الأخرى بلاد كلها صحراء ورمال، لا نهر فيها ولا ماء باستثناء بعض الآبار ذات الماء الملح الأجاج، وهي مع ذلك قليلة. وفي بعض النواحي لا يوجد الماء في طول مسافة سفر ستة أيام أو سبعة. ويكون على التجار أن يحملوا الماء في القرب على ظهور جمالهم، وخصوصاً في الطريق الرابطة بين فاس وتنبكتو، وبين تلمسان وأكدز. وأسوأ من هذا خط السفر المفتوح حديثاً بين فاس والقاهرة مروراً بصحاري ليبيا، غير أن

المسافرين يمرون في طريقهم هذه بالقرب من بحيرة عظيمة(86) تعيش حولها شعوب ساوو وكوران.

وفي الطريق المؤدية من فاس إلى تنبكتو توجد بعض الآبار المكسوة في داخلها بجلد الإبل أو المبنية بعظامها. ومن الخطر جداً على التجار أن يقوموا بهذا السفر في غير فصل الشتاء، لأنه تهب في غير هذا الفصل رياح قبلية تحمل معها من الرمال ما يغطي الآبار، حتى أن من يذهب مؤملاً أن يجد الماء في الأماكن المعتادة لا يعثر للآبار التي غطتها الرمال على رسم ولا أثر، ويكون مضطراً إلى أن يموت عطشاً.

وغالباً ما يرى المسافرون عظام هؤلاء الرجال وجمالهم مبيضة في بعض الأماكن. وليس لذلك إلا دواء واحد غريب، وهو أن يقتل جمل ويستخرج الماء من بطنه، فيشرب بعضه ويقسم الآخر إلى أن يقع العثور على بئر أو أن يهلك المسافرون عطشاً.

ويشاهد في صحراء أزواد قبران مبنيان بنوع من الحجر لا أعرفه نقشت عليه كتابة تقول بأن رجلين دفنا ها هنا، كان أحدهما تاجراً غنياً مرّ بهذه الصحراء فاشتد عطشه واشترى من الآخر، وهو الدليل، قدحاً من الماء بعشرة آلاف مثقال، لكنهما ماتا معاً من العطش، سواء التاجر الذي اشترى الماء، والدليل الذي باعه إياه.

تكثر في هذه الصحراء الحيوانات الضارة وغيرها، وسأتحدث عنها في القسم الرابع من هذا الكتاب عندما أتكلم على ليبيا، أو عندما أتعرض على الخصوص للحيوانات الموجودة بافريقيا(87).

---

(86) هي بحيرة التشاد.

(87) كان في نية المؤلف، بعد تخصيص كتابه الأول للمعلومات الجغرافية العامة، أن يصف بلاد البربر في الكتاب الثاني، ونوميديا في الثالث، وليبيا في الرابع، إلا أنه لم يتبع هذا التصميم.

وللمزيد من المعلومات والتوضيحات، سأشير بكيفية خاصة إلى أخطار تعرضت لها أثناء الرحلات التي قمت بها في ليبيا، لا سيما خلال رحلتي من ولاتة إلى القاهرة. كنا تارة نضل الطريق إلى مكان الماء بسبب خطأ الدليل، وتارة نجد العدو يحتل الممرات المؤدية إلى الماء، فنضطر إلى ادخار الماء لنكتفي منه طوال عشرة أيام باستعمال ما كنا أعددناه لخمسة أيام فقط. وإذا أردنا أن نذكر تفاصيل سفرة واحدة فلا بد من أن نكتب مجلداً من مائة صفحة.

والبلاد الواقعة في أرض السودان شديدة الحرارة، إلّا أن بها شيئاً من الرطوبة بسبب النيجر، وكل الأقاليم المجاورة لهذا النهر تصلح جداً للزراعة، وتنمو فيها الحبوب بكثرة، وتوجد بها من الماشية أعداد لا تحصى. غير أنها لا فاكهة فيها سوى ثمر شجرة ضخمة شبه القسطل يميل طعمه إلى المرارة. وتبعد هذه الأشجار قليلاً عن النهر لتقع في الأرض اليابسة، وتسمى الفاكهة المذكورة كورو(88) بلغة البلاد.

صحيح أن اليقطين والخيار والبصل ينبت هناك بكثرة، ولا يرى جبل ولا تل على ضفاف نهر النيجر، ولا حتى على تخوم ليبيا. لكن تتكون عند فيضانه بحيرات عظيمة تحيط بها غابات عديدة مملوءة فيلة وحيوانات أخرى حسبما سنفصل ذلك في محله.

الحركة الطبيعية للرياح بإفريقيا والتغيرات الناتجة عنها

يبتدىء فصل الشتاء والبرد في كل بلاد البربر تقريباً بعد منتصف اكتوبر، ويستمر في دجنبر، ثم يشتد البرد في يناير كما هو الشأن في سائر البلدان، لكن هنا في الصباح فقط بحيث لا يحتاج أحد إلى إيقاد النار

---

(88) هو اسم كولا.

للتسخين. ويقل البرد عادة في شهر فبراير، غير أن الجو يتقلب غالباً خمس أو ست مرات في اليوم. وفي شهر مارس تهب رياح قوية من الغرب والشمال فتخصب الأرض وتزهر الأشجار. وفي أبريل تكاد جميع الفواكه تبتدىء في أخذ شكلها بحيث يؤكل حب الملوك في سهول موريطانيا أوائل ماي بل وفي أواخر أبريل. وبعد مرور الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر ماي يقتطف تين ناضج نضج تين الصيف. وفي الأسبوع الثالث من شهر يونيه يبدأ العنب ينضج ويؤكل، وينضج في شهري يونيه ويوليوز التفاح والإجاص والمشمش والبرقوق جميعها، كما ينضج في شهر غشت تين الخريف والعناب، غير أنه لا يكثر التين والخوخ إلاَّ في شتنبر. ويبدأ تجفيف العنب في الشمس بعد منتصف غشت، فإذا نزل المطر في شتنبر عصر ما بقي من العنب خمراً و(صامتاً)(89) لا سيما في إقليم الريف كما سنذكره عندما نتعرض له.

ويقتطف التفاح والرمان والسفرجل في شهر اكتوبر، والزيتون في نونبر. ولا يكون قطف الزيتون باليد والتسلق في السلاليم كما هو الحال في أوربا، إذ لا يمكن صنع سلاليم طويلة تصل إلى أعلى الأشجار، فأشجار الزيتون هنا ضخمة عالية جداً لا سيما الواقعة منها في موريطانيا والقيصرية، لكن أشجار الزيتون في مملكة تونس شبيهة بأشجار زيتون أوربا. وعندما يريد الناس قطف الزيتون يتسلقون الأشجار وفي أيديهم عصي طويلة جداً يضربون بها الأغصان ليسقط الثمر. وهم يعرفون أن ذلك مضر بالأشجار حيث يتسببون في إتلاف البراعم وعدد كثير من الجذوع الصغيرة وإفسادها. ثم إنه يحدث لزيتون افريقيا أن يكثر في سنة، ويقل في أخرى حتى لا ترى ولو زيتونة واحدة. ويوجد نوع من الزيتون الغليظ لا يصلح لأن يعصر منه الزيت، وإنما يؤكل محفوظاً (مصبراً) حتى في جميع فصول السنة.

---

(89) عصير خمر مطبوخ.

حدود الفصول ومميزاتها

تكون شهور الربيع الثلاثة معتدلة نسبياً، ويبتدىء فصل الربيع في 15 فبراير لينتهي في 18 ماي، ويبقى الجو صافياً طوال هذا الفصل، غير أنه إذا لم ينزل مطر فيما بين 25 أبريل و 5 ماي تضرر محصول السنة كثيراً. ويسمون ماء المطر الذي ينزل في هذه المدة «ماء نيسان» ويعتبرونه ذا بركة إلهية، فيحتفظ به كثير من الناس في قوارير صغيرة للتبرك به(90).

يستمر الصيف إلى 16 غشت، فيشتد الحر دائمًا لا سيما في شهري يونيه ويوليوز حيث تكون السماء صافية رائقة، إلَّا أنه في بعض السنين ينزل المطر في شهري يوليوز وغشت فيفسد الجو كثيراً وتنشأ عنه حمى حادة تشتد على أكثر الناس ولا ينجو منها إلا القليل.

يبدأ الخريف عند الأفارقة في 17 غشت ويستمر إلى 16 نونبر، فتقل الحرارة في شهري غشت وشتنبر، ومع ذلك فإن الأيام الواقعة فيما بين 15 غشت و 15 شتنبر سماها الأقدمون «فرن الزمان»، لأن شهر غشت ينضج التين والرمان والسفرجل وينشف العنب. أما فصل الشتاء فيبدأ في 15 نونبر ويستمر إلى 14 فبراير. ويبدأ موسم الزرع في الجبال خلال شهر أكتوبر.

يعتقد الإفريقيون أن في السنة أربعين يوماً شديدة الحر تبتدىء يوم 12 يونيه، وأربعين يوماً شديدة البرد تبتدىء يوم 12 دجنبر(91)، ويعرفون اعتدال (الربيع والخريف) ويحددونه في 16 مارس و 16 شتنبر، ويقولون بانقلاب سير الشمس (صيفاً وشتاء) في 16 يونيه و 16 دجنبر.

تلك هي القواعد الفلكية التي يعتبرها الأفارقة، سواء في كراء أراضيهم وزرعها وحصدها، أو في ركوب البحر ومعرفة مواقع النجوم في

---

(90) هناك مثل عند الفلاحين المغاربة يقول: (الشتا دنيسان كترفد في الكيسان).

(91) يسمون أيام الحر هذه: السمائم، وأيام البرد: الليالي.

منازل أفلاكها وحساب حركة الكواكب السيارة. ويعلمون الأولاد في المدارس أشياء نافعة جداً مما يتعلق بهذه المسائل.

وهناك عدد وافر من الفلاحين العرب وغيرهم في غاية الأمية يحسنون الكلام بإسهاب في الفلك، ويستنتجون من أقوالهم استنتاجات متناهية في الدقة. والقواعد التي يتبعونها في ذلك وهي عندهم ضرورية أتت من اللاتينية وترجمت منها إلى العربية. ويوجد كتاب ضخم في ثلاثة أجزاء يسمى «**كنز الفلاحة**» ترجم من اللاتينية إلى العربية في قرطبة أيام المنصور ملك الأندلس(92). ويتعرض هذا الكتاب لجميع المسائل الضرورية للفلاحة، كالفصول وطرق الزرع والغرس وتلقيح الأشجار وتغيير كل ثمر أو حب أو خضرة بواسطة الفلاحة... وإني لأعجب كثيراً من وجود مثل هذا العدد من الكتب المترجمة عن اللاتينية عند الأفارقة في حين افتقدت الآن عند اللاتينيين.

إن التوقيت وأحكامه في جميع المسائل الدينية والشرعية التي يسير عليها الأفارقة وسائر المسلمين مبني على سير القمر، فالسنة 354 يوماً، لأنها تتركب من ستة شهور في كل منها ثلاثون يوماً، وستة شهور أخرى في كل منها تسعة وعشرون يوماً، فيكون مجموع الأيام هو ذلك العدد. وتكون الأعياد والصيام في تواريخ مختلفة، فالسنة العربية إذا أقصر من السنة اللاتينية بأحد عشر يوماً، وهذا العدد من الأيام هو الذي يجعل سنتنا دائماً متأخرة عن السنة الشمسية.

واعلم أيضاً أنه في آخر الخريف وأثناء الشتاء كله وبعض فصل الصيف تحدث عواصف مصحوبة بالبرد والصواعق والبرق، وينزل الثلج

---

(92) هذه العبارة مضطربة، إذ المقصود ــ فيما يظهر ــ أنه يعني المنصور بن أبي عامر حاجب الحكم المستنصر الأموي، وكان حاكماً للأندلس كلها لا لغرناطة فقط، اللهم إلا أن يكون ذلك من تأثر المؤلف بما عرف من اقتصار حكم المسلمين على غرناطة في عهدهم الأخير بالأندلس. انظر **المقدمة**، ص 23.

في أماكن كثيرة من بلاد البربر، والرياح الثلاث التي تهب من الشرق والجنوب الشرقي والجنوب بالغة الضرر، لا سيما في شهري مايو ويونيه، لأنها تفسد جميع الغلات وتمنع الفواكه من النمو والنضج. وكذلك الضباب يضر الحبوب كثيراً لا سيما إذا وقع في وقت الازهار لأنه يستمر أحياناً النهار كله.

وفي الأطلس لم تعد السنة تشتمل إلاّ على فصلين، ستة أشهر للشتاء من أكتوبر إلى أبريل، وستة أشهر للصيف من أبريل إلى شتنبر، غير أنك تجد الثلج دائمًا طوال السنة في أعلى قمم الجبال.

وفي نوميديا يتقدم تسلسل الفصول، إن صح هذا التعبير، فالقمح يحصد في مايو، والتمر يجنى في أكتوبر. ومن منتصف شتنبر وأكتوبر كله إلى يناير يكون الفصل الأكثر برداً في السنة. وإذا هطل المطر في شتنبر فسد معظم التمر، وكانت الغلة مزرية. وتحتاج جميع أراضي نوميديا إلى السقي لكي تزرع. ومن ثم إذا لم يهطل مطر في الأطلس وجفت وديان نوميديا فإنه لا يمكن سقي الأراضي. وإذا لم ينزل مطر كذلك في أكتوبر فإنه لا يرجى أن يكون حصاد في تلك السنة. وإذا لم تمطر السماء في شهر أبريل كانت غلة القمح منعدمة في البوادي. ولكن عندما ينحبس المطر تجود غلة التمر. ويفضل النوميديون كثيراً غلة التمر على غلة القمح، لأن هذه الأخيرة مهما كثرت لا تكفي لنصف السنة. أما إذا جادت غلة التمر فإن القمح لا ينعدم حينئذٍ، إذ أن الاعراب والجمالين الذين يتعاطون تجارة التمر يأتون بكميات ضخمة من القمح لاستبداله بالتمر.

وإذا تغير الجو في صحراء ليبيا عند منتصف غشت، واستمر هطول المطر إلى شهر نونبر وحتى أثناء دجنبر ويناير وطرف من فبراير، نتج عن ذلك وفرة الأعشاب، ووجد حينئذٍ في ليبيا كلها بحيرات عديدة، وكثر اللبن. وهذا هو السبب الذي من أجله يقوم تجار بلادالبربر في هذا الفصل برحلتهم إلى أرض السودان.

وفي هذه البلاد تتقدم الفصول، فتظهر بوادر المطر في نهاية يوليوز غير أنهم لا يمطرون بغزارة. ويمتاز المطر في بلاد السودان بخاصية أنه لا ينفع ولا يضر. فمياه النيجر تكفي حقول القمح، وفيضان النهر يرطب الأرض ويخصبها مثلما يفعل النيل في مصر تماماً. حقاً إنه يحتاج إلى المطر في بعض الجبال. ويقع فيضان النيجر في نفس وقت فيضان النيل، أي أنه يبتدىء في 15 يونيه ويستمر أربعين يوماً. ويمكن في وقت الفيضان أن يقطع المرء كل بلاد السودان تقريباً على ظهر زورق، لأن المنبسطات والشعاب والحفر تصير كلها ودياناً. لكن ركوب بعض الزوارق التي يستعملها أهل البلاد خطير جداً كما سأفصِّل ذلك في القسم الخامس من هذا الكتاب(93).

قصر العمر وطوله
عند الأفارقة

يعمِّر الناس في جميع مدن بلاد البربر وقراها من خمسة وستين إلى سبعين عاماً، ويعيش قليل منهم أكثر من ذلك، غير أنه يوجد في الجبال من يبلغ مائة سنة أو يجاوزها. وشيخوختهم قوية مرنة. ولقد رأيت بعض الجبليين بلغوا الثمانين أو جاوزوها يحرثون الأرض وينقشون الكرم ويقومون بسائر الأعمال التي يحتاجون إليها بخفة عجيبة. ورأيت أعجب من ذلك في الأطلس شيوخاً في هذه السن يشاركون في الحروب ويصارعون الشبان بشجاعة وكثيراً ما ينتصرون.

ويعمر الناس طويلاً كذلك في نوميديا، أي بلاد النخيل، لكنهم يفقدون أسنانهم، ويضعف بصرهم كثيراً. ويأتي سقوط الأسنان من كونهم يأكلون التمر على الدوام، وضعف البصر من كون هذه البلاد تعصف بها

---

(93) غيَّر المؤلف ترتيب كتابه فتحدث عن هذه الزوارق في القسم السابع عند كلامه على جني.

الريح الشرقية التي تحمل الرمل والغبار فتتأذى منها العيون وتفسد في النهاية. أما أهل ليبيا فيعيشون أقل من سكان المناطق السابقة، غير أنهم يبقون أقوياء سالمين إلى أن يبلغوا الستين سنة أو نحوها، لأنهم ضامرون طوال.

ويعمر الناس في بلاد السودان أقل مما تعمره الأجناس الأخرى، لكنهم يبقون دائمًا أقوياء، وأسنانهم سالمة على حالها لا تتغير. وهم فاسقون فجرة كأهل ليبيا ونوميديا، بينما نجد طبع سكان بلاد البربر أكثر اعتدالاً.

أكثر الأمراض انتشاراً
عند الأفارقة

يتكون القرع عادة في رؤوس الأطفال الصغار والنساء البالغات، فيصعب الاستشفاء منه إلا بمشقة عظيمة. ويصيب صداع الرأس كثيراً من الناس دون حمى في بعض الأحيان، وتكثر أمراض الأسنان التي يظن أنها ناشئة عن كون هؤلاء القوم يشربون الماء البارد فور تناولهم الحساء الحار. ويتألمون كذلك من أمراض المعدة التي يسمونها جهلاً أمراض القلب، ويصاب الكثير منهم يومياً بإسهال وأوجاع حادة في أمعائهم، وذلك أيضاً بسبب الماء البارد الذي يشربون. ويكثر عندهم ألم النسا (بوزلوم) والركب بسبب الجلوس على الأرض وهم لا يلبسون أي نوع من السراويل.

ولا يصاب منهم بالنقرس إلاَّ القليل، ومع ذلك يرى بعض الرؤساء المصابين به ممن اعتادوا شرب الخمر وأكل الدجاج وغيره من الأطعمة الناعمة الشهية.

والإكثار من أكل الزيتون والجوز وغيرهما من الأطعمة الخشنة التي لا تصلح لشيء يورث الجرب الذي يصعب التخلص منه. والجلوس على الأرض في الشتاء يسبب أحياناً لذوي المزاج الدموي سعالاً قوياً وأليمًا. وكثيراً ما يتلهى في المساجد يوم الجمعة في الوقت الذي يجتمع عادة آلاف

الأشخاص، فإذا وصل الخطيب إلى أحسن فقرة في خطبته واتفق أن سعل أحد الحاضرين، سعل آخر (ثم آخر) وهكذا حتى يسعل الجميع في نفس الوقت تقريباً إلى نهاية الخطبة فيفترقون دون أن يستمع أحد إليها.

وداء الإفرنج (الزهري) الفظيع بأوجاعه وبثوره وقروحه منتشر كثيراً في بلاد البربر لا يكاد يسلم منه إلا القليل. حقاً ان هذا الداء لا يكاد يعرف في البوادي وجبال الأطلس، ولا يوجد بتاتاً عند الأعراب ولا في نوميديا، أي بلاد النخيل، ولا في ليبيا، ولا يقع حتى الحديث عن هذا الداء في بلاد السودان. بل بالعكس إذا أصيب به أحد فإنه يشفى منه عاجلاً بمجرد أن يبدل الهواء ويذهب إلى نوميديا أو بلاد السودان.

وهذا الداء لم يشاهد قط ولم يذكر حتى اسمه، لكن عندما طرد الدون فيرديناند ملك إسبانيا اليهود من بلاده(94) جاء كثير منهم إلى بلاد البربر فظهر فيها هذا الداء الذي حمله عدد كثير من يهود إسبانيا، وكان لعدد من أشقياء المغاربة اتصال (جنسي) مع نساء هؤلاء اليهود، وهكذا انتشر قليلاً قليلاً في ظرف عشر سنوات حتى لم تعد تسلم منه أية أسرة.

وقد اعتبر المصابون الأولون بهذا المرض كالبرصان، فطردوا من بيوتهم وألزموا بالسكن مع البرصان، لكن عندما شوهد تكاثر عدد الإصابات به كل يوم، وأصبح عدد المصابين ضخماً في إسبانيا كلها، أخذ المرضى يحيون حياتهم العادية، وعاد المبعدون منهم إلى بيوتهم على الفور. ويؤكدون في بلاد البربر أن أصل هذا المرض من إسبانيا ويطلقون عليه ذلك الاسم في إسبانيا ولا سيما في موريطانيا. ويطلق عليه أهل تونس اسم داء الإفرنج، كما يطلق عليه ذلك الإيطاليون وأهل مصر والشام. وقد فتك هناك (بالناس) فتكاً ذريعاً وخاصة في مملكة تونس.

ويصاب عدد من الناس بذات الجنب.

---

(94) وذلك بمرسوم 3 مارس 1492.

ولا يشكو في بلاد البربر إلا القليل من ذلك المرض أو تلك العاهة المسماة بالفتق عند اللاتينيين، لكن يشكو منه الكثير في الديار المصرية. وقد تنتفخ الخصيتان عند البعض إلى حد أنهما تشكلان منظراً غريباً. ويظن أن مردَّ هذه العاهة إلى أكل الصمغ والإكثار من أكل الجبن المالح.

وكثيراً ما يشاهد مرض الأعصاب في افريقيا عند الأطفال، لكنهم يشفون منه كلما تقدمت سنهم، ويصاب به كثير من النساء، لا سيما في بلاد البربر وأرض السودان. ومن البلاهة اعتبار هؤلاء كمصابين بمس من الجن.

ويظهر الوباء في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات، أو خمس عشرة أو خمس وعشرين سنة. وعندما يأتي يذهب بالعدد العديد من الناس، لأنه لا يهتم به أحد ولا يستعمل أي دواء باستثناء التمسح بالتراب الأرميني حول دمل الطاعون، ولم يظهر الوباء بنوميديا منذ مائة سنة، ولم يظهر قطُّ في أرض السودان.

مزايا الأفارقة
والأشياء المحمودة عندهم

إن الأفارقة الذين يسكنون مدن بلاد البربر، ولا سيما مدن ساحل البحر المتوسط، يهتمون كثيراً بالتعلم ويتعاطون الدراسة بكامل العناية. وفي طليعة ما يدرسون الآداب والكلام والفقه. وكان من عادتهم في القديم أن يدرسوا الرياضيات والفلسفة وحتى علم الفلك. غير أنه منذ أربعمائة سنة خلت، كما أشرت إلى ذلك من قبل، منعهم فقهاؤهم وملوكهم من تعاطي معظم هذه العلوم. وذلك ما حدث للفلسفة والتوقيت الشرعي.

وسكان افريقيا متمسكون أيضاً بالديانة شديد التمسك، يخضعون لفقهائهم وأئمتهم، ويهتمون شديد الاهتمام بمعرفة الأشياء الضرورية في

الدين. يترددون على المساجد لأداء الصلوات، ويتحملون بصبر عجيب مشقة الوضوء قبل كل صلاة، بل ويغسلون أجسادهم أحياناً، حسبما أذكر ذلك في الباب الثاني من كتابي عن العقيدة والديانة الإسلامية.

ثم إن سكان المدن في بلاد البربر أناس ماهرون، حسبما يشاهد من جودة الأعمال المختلفة التي ينجزونها. وهم ذوو تربية فائقة، وكياسة متناهية، وإحسان كثير، حتى لا تكاد تصدر عنهم إساءة. تكن أفئدتهم الحق وتنطق به ألسنتهم، رغم ما كانوا عليه بخلاف ذلك في القرون الخالية حسبما يشهد به التاريخ الذي كتبه المؤلفون اللاتينيون(95). وهم غاية في الإقدام والشجاعة ولا سيما الجبليون منهم، يوفون بالعهد فوق كل شيء ويؤثرون الموت على إخلاف الوعد. ولا حد لغيرتهم على النساء، حتى إنهم ليهبون أرواحهم بدل أن يتحمَّلوا العار في حق نسائهم، كما لا حد لحرصهم على المال والشرف، فيذهبون إلى جميع الأقطار للاتجار، فتراهم في كل وقت بمصر وأثيوبيا والجزيرة العربية، وبلاد فارس والهند وتركيا. وحيثما ذهبوا حَسُنَ اقتبالهم وإكرامهم، لأنهم جميعاً خبراء ماهرون في المهن التي يمتهنونها.

أضف إلى هذا أنهم ذوو حشمة وأمانة في حديثهم، لا يجهرون بالسوء من القول البتة، يحترم صغيرهم كبيرهم، سواء في الكلام أو في أية مناسبة أخرى، حتى إن الشاب منهم لا يجرؤ على أن يتحدث عن الحب أو عن الفتاة التي يهواها بمحضر أبيه أو عمه، كما يستحي أن ينشد أغنية غرامية بمجرد ما يرى من هو أكبر منه. وإذا جاء أطفال إلى أناس يتحدثون عن الغرام انصرفوا حالاً. تلك هي العادات الحسنة وتقاليد التربية المستحسنة التي توجد عند الحضريين ببلاد البربر.

---

(95) الإشارة إلى «فيديس بونيكا» لسالوست.

وسكان الخيام، أعني الاعراب والرعاة، ذوو كرم ورحمة وشجاعة وحلم ولطف وألفة، يعيشون عيشة راضية في طاعة وديانة وبشاشة ومرح.

وسكان الجبال هم بدورهم كرماء شجعان، يحسنون الكلام ويحيون حياة جماعية شريفة.

وسكان نوميديا أكثر معرفة من أولئك، لأنهم متشبثون بالقِيَمِ الأخلاقية ودراسة الشريعة الإسلامية. غير أنهم لا يعرفون شيئاً يذكر من العلوم الطبيعية، يحسنون استعمال السلاح، فهم أشِدَّاء، رحماء (بينهم).

وسكان ليبيا، سواء منهم الأفارقة والعرب، ذوو كرم ولطف، يعملون كل ما في استطاعتهم لخدمة إخوانهم، ويحترمون الغريب غاية الاحترام، وهم على جانب كبير من الطيبوبة والصراحة والإخلاص.

يعيش السودانيون عيشة حسنة أوفياء، ويحسنون استقبال الغرباء، ويقضون أوقاتهم في اللهو والمجون، يرقصون ويولمون بأكثر ما يمكن. ويقبلون على كل أنواع التسلية. وهم في غاية الصراحة، يُعَظِّمون العلماء والفقهاء ويوقِّرونهم، وهم الذين يقضون أحسن الأوقات من بين الأفارقة القاطنين في هذه البلاد.

مساوىء الأفارقة
والأشياء المذمومة عندهم

مما لا شك فيه أن للأفارقة مساوىء بقدر ما لهم من محاسن، فلننظر ما إذا كانت هذه المساوىء أقل أو أكثر أثراً. إن سكان مدن بلاد البربر فقراء متكبرون لا مثيل لحقدهم، فهم كما يقال ينقشون على الرخام أقل إهانة (تلحقهم) ولا يسمحون لها بالخروج من قلوبهم أبداً. وهم كريهون لدرجة أنه قلَّما ينال الغريب محبتهم، بالإضافة إلى أن سذاجتهم تجعلهم يصدقون كل شيء مهما كان مستحيلاً. وتجهل العامة نواميس

الطبيعة جهلاً تاماً، حتى إنها تنظر إلى جميع الظواهر الطبيعية كيفما كانت كتصرفات إلهية. وهم غير منتظمين في معاشهم وكذلك في أعمالهم، يتملكهم الغضب، وفي معظم الأوقات عندما يتكلمون يرفعون أصواتهم بكلام متغطرس. وفي الأزقة التي يكثر فيها المرور قلَّ ألَّا ترى رجلين أو ثلاثة يتلاكمون، وهم أنذال لا يعيرهم سادتهم أي اعتبار: ويمكن القول ان السيد منهم يهتم بحيوان أكثر مما يهتم بإنسان مدني، وليس لهم أعيان ولا قضاة يتولون شؤونهم أو ينصحونهم في أية مسألة من سياسة أمورهم، بالإضافة إلى أنهم في غاية التعنت والجهل بالتجارة، ليست لهم مصارف ولا من يتكفل بشحن البضائع من مدينة إلى أخرى، وإنما يلزم كل تاجر ان يبقى بجانب بضاعته ويذهب معها أين ذهبت.

وهم فوق كل ذلك بخلاء يوجد من بينهم عدد لم يقبل قط إيواء غريب، لا مجاملة ولا لوجه الله. كما أن منهم القليل ممن يردون الحسنة بمثلها. وهم في اضطراب وقلق مستمر، لا يصغون إلى الفكاهة بتذوق، وذلك لاهتمامهم المستمر بضرورات الحياة لشدة فقرهم وقلة مكاسبهم.

والرعاة سواء منهم سكان الجبال وسكان السهول يعيشون معيشة ضنكاً ويبقون في بؤس وخصاصة على الدوام. وهم جفاة ولصوص وجهال، لا يردون إطلاقاً ما اقترضوا من مال. والأزواج المخدوعون عندهم أكثر من غيرهم. ويمكن لجميع الفتيات أن يكون لهن قبل الزواج عشاق يذقن معهم حلاوة الحب، ويرحِّب الأب نفسه بعاشق ابنته أجمل ترحيب، وكذلك يفعل الأخ بعاشق أخته، بحيث إنه لا توجد امرأة تزف بكراً إلى زوجها. حقاً إن المرأة بمجرد زواجها ينقطع عنها عشاقها، ولكنهم يذهبون إلى أخرى. وأكثر هؤلاء القوم ليسوا بمسلمين ولا يهود ولا بالأحرى مسيحيين، لا إيمان لهم ولا دين بل ليس لهم حتى ظل الدين. لا يؤدون أي صلاة، وليست لهم مساجد، وإنما يعيشون كالبهائم. وحتى

إذا وجد من بينهم من له ذرة شعور بالدين اضطر إلى أن يعيش كغيره ما دام ليس هناك مبادىء دينية ولا فقهاء ولا أية قاعدة من القواعد.

والنوميديون بعيدون عن معرفة الأشياء جاهلون بطريقة السلوك في حياة طبيعية منتظمة، فهم غدارون فتاكون متلصصون لا يراعون إلاًّ ولا ذمة، كما انهم لا إيمان لهم ولا قواعد دينية. عاشوا دائمًا ويعيشون وسوف يعيشون في شقاء. وإذا احتاجوا إلى شيء أو طمعوا فيه ارتكبوا كل خيانة مهما عظمت وفظعت. ولا توجد بهائم تحمل قروناً كقرون هؤلاء الأنذال يقضون حياتهم كلها في الاضرار أو الصيد أو القتال فيما بينهم أو رعي ماشيتهم في القفر يمشون دائمًا حفاة عراة.

وسكان بلاد السودان شرسون دون عقل ولا ذكاء ولا خبرة، لا يعرفون أي شيء على الإطلاق، يعيشون أيضاً كالبهائم بدون قواعد ولا قوانين. وتكثر عندهم العاهرات والأزواج المخدوعون، إلا قليلاً من النساء اللواتي يعشن في أمهات القرى فلهن نصيب أوفر قليلاً من الكرامة الإنسانية.

ولا يخفى علي ما يصيبني من خجل عندما أعترف وأكشف عيوب الأفارقة، فافريقيا في الواقع هي التي أرضعتني، وفيها كبرت وقضيت أجمل وأطول قسط من حياتي، لكن عذري عند الجميع هو ما أضطلع به من دور المؤرخ الذي يلزمه قول الحق الواقع دون أي اعتبار، ولا إرضاء رغبات أي كان. ذلك هو السبب الذي اضطررت من أجله اضطراراً إلى أن أكتب ما أكتب قاصداً ألا أبتعد عن الحقيقة في شيء، وأن أترك جانباً محسنات الأسلوب وزخرف القول.

وللدفاع عن نفسي، لا بد من أن أقص حكاية صغيرة تكون مثلاً كافياً للأذهان النيِّرة والشخصيات البارزة التي ستتفضل بقراءة هذا المؤلف الطويل.

يحكى أن شاباً وضيعاً سيىء السلوك من بلادي ألقي عليه القبض من أجل سرقة تافهة وحُكِمَ عليه بالَجلد. ولما حل اليوم الذي ينفذ فيه الحكم ويسلم إلى رجال العدالة لاحظ أن الجلَّاد من أصحابه، ووثق من أنه سيوليه من الرفق أكثر مما يوليه لغيره. لكن الجلَّاد بعكس ذلك بادره بضربة قاسية جداً، فتألم الصاحب المسكين وأخذ يصيح: يا أخي إنك تعاملني معاملة في غاية السوء مع أنك صديق! فنزل عليه الجلَّاد بضربة ثانية أعنف من الأولى، وقال له: لا بد يا صاحبي من أن أقوم بعملي كما يجب، ولا موضوع للصداقة هنا! ثم تابع عمله وصبَّ عليه سوطه بعدد الجلدات التي حَكَمَ بها القاضي كاملة.

لهذا كنت أُلَام لو أني أخفيت عيوب الأفارقة. وقد يظن البعض أنني فعلت ذلك لاتصافي بالكثير من هذه النقائص، ولحرماني من تلك الفضائل التي للآخرين. وفي هذه الحالة بما أنني لا أملك وسيلة أخرى أفضل للدفاع عن نفسي، أرى أن أستفيد من طريقة اتَّبعها أحد الطيور. ولكي أوضِّح لكم ذلك أقصُّ عليكم حكاية أخرى قصيرة وممتعة:

زعموا أنه في العصر الذي كانت فيه الطيور تتكلم، كان طائر صغير ظريف جريء خصَّه الله بذكاء عجيب، وحبته الطبيعة خاصية إمكان العيش بين السمك في الماء، وعلى الأرض مع سائر الطيور. وكان على جميع الطيور آنذاك أن تؤدي إلى ملكها ضريبة سنوية، فقرر هذا الطائر ألا يؤدي شيئاً. ولما بعث إليه الملك أحد موظفيه لاستخلاص الضريبة، قدم إليه الطوير الماكر كلمات بدل المال، ثم ارتفع في الجو ولم يقف حتى نزل في البحر واختفى في مياهه. ولما رأى السمك هذا الشيء الجديد تسارعوا إليه جميعاً وأحاطوا به لمعرفة السبب الذي حمله على المجيء إليهم، فأجابهم بقوله: «يا حسرتاه! ألا تعلمون أيها الكرام أن العالم صار إلى حيث أنه لم يعد بالإمكان العيش في البر؟ وأن ملكنا النذل الحقير زيَّنت له نفسه أن يمزقني حياً رغم صلاحي وكوني أمثل الطيور وأشرفها على الإطلاق. ثم زاد

قائلاً: فاسمحوا لي لوجه الله أن أسكن معكم حتى يمكنني القول بأني وجدت عند الغرباء من الإيناس أكثر مما وجدته عند أهلي وأبناء جنسي. فرضي السمك بذلك، وقضى الطائر الصغير سنة معهم دون أن يؤدي أية ضريبة. ولما انتهت السنة وحان وقت استخلاص الضرائب، بعث ملك السمك أحد خدامه إلى الطائر الصغير ليخبره بما جرت به العادة ويطلب منه أداء المبلغ الذي وجب عليه. فقال له الطائر: هذا معقول تماماً! ثم طار وخرج من الماء تاركاً مخاطبه في غاية الارتباك والدهشة. وهكذا كان كلما طلب من الطائر الصغير أن يؤدي الضريبة لملك الطيور هرب واختفى تحت الماء، وكلما طلب منه أن يؤدي الضريبة لملك السمك عاد إلى البر.

أريد أن أستخلص من هذا، أن الإنسان يسعى إلى حيث يرى منفعته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ومن ثم فإني إذا ذممت الأفارقة قلت انني ولدت بغرناطة لا بافريقيا، وإذا انتقدت مسقط رأسي تعللت بأني إنما نشأت في افريقيا لا في غرناطة. غير أن عطفي على الأفارقة يجعلني لا أذكر من الأشياء التي يلامون عليها سوى ما كان منها معروفاً عند الناس ظاهراً للعيان.

القسم الثاني

مملكةُ مَرّاكُش

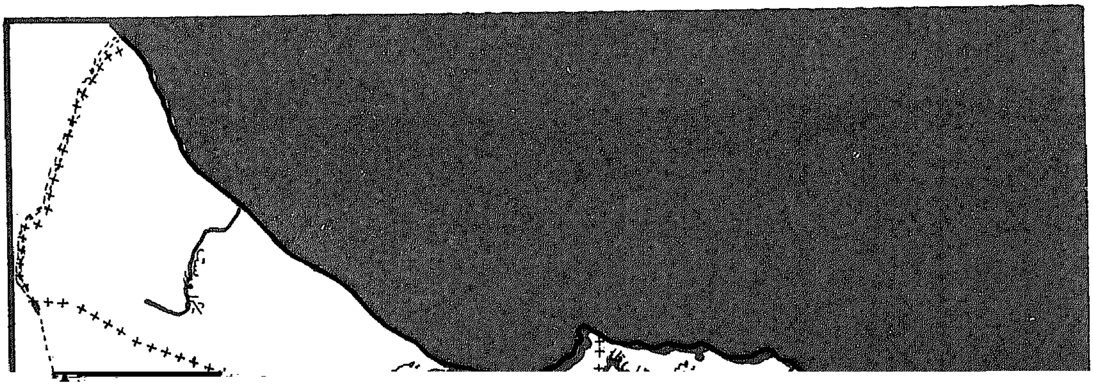

جذبوا الحبل بقوة ووقع في السجن. فينزل إذ ذاك الصيادون من الأشجار ويقتلون الفيل بالنبال ثم يأخذون أنيابه ليبيعوها. لكن إذا خرج الفيل من السياج قتل كل من وجد من الناس.

وفي الهند واثيوبيا العليا طريقة أخرى لصيد الفيل لا أذكرها.

الزَّرَافَة

الزرافة حيوان وحشي لا يكاد يُرى، لأنه يختفي في غابات وصحارى ليس بها حيوانات أخرى. يفرّ إذا رأى الناس لكنه بطيء في عدوه. رأسه رأس البعير، وأذناه أذنا الثور، وحوافره حوافر... (25) ولا يقتنص الصيادون الزرافات الكبيرة أبداً، وإنما يذهبون إلى الغابات للبحث عن الصغار في مأواها.

---

(25) هنا بياض، وقد ترجم طمبورال هكذا: «... أذنا الثور وحوافر الثور...».

البعير

البعير حيوان أهلي هادىء جداً، توجد منه كمية عظيمة في افريقيا، خصوصاً في صحارى نوميديا وليبيا وحتى في بلاد البربر. وتكوّن الإبل ثروة الأعراب وأرزاقهم، وعندما يراد ذكر ثروة أمير أوشريف من الأعراب يقال: «فلان له مقدار كذا من آلاف الإبل»، ولا يقال: «له مقدار كذا من الدنانير أو الممتلكات».

وجميع الأعراب الذين يملكون الإبل أمراء يعيشون أحراراً، إذ بها يستطيعون الإقامة في الصحارى التي لا يقدر ملك ولا أمير أن يذهب إليها لجفافها.

توجد هذه الحيوانات في كل أنحاء العالم، في آسيا وافريقيا وحتى في اوربا. ويملكها في آسيا التتر والأكراد والديلم والتركمان، كما يستعملها في اوربا الأمراء الأتراك في قوافلهم، وكذلك في افريقيا بالنسبة للأعراب وسكان صحارى ليبيا. ويقتنيها أيضاً جميع الملوك لحمل مؤنهم وأمتعتهم، إلا أن إبل افريقيا أفضل من إبل آسيا لأنها تحمل الأثقال مدة أربعين أو خمسين يوماً دون أن تستلزم علفاً في المساء، وإنما تنزل عنها الأحمال وتترك ترعى في البرية قليلاً من العشب والشوك وأغصان الشجر، وذلك ما لا يمكن عمله مع إبل آسيا.

ويجب عند السفر أن يكون الجمل كثير السمن مملوء البطن. فقد أظهرت التجربة أن الجمل عندما يسافر خمسة أيام وهو يحمل الثقل دون أن يأكل، يذهب أولاً شحم سنامه، ثم بعد خمسة أيام أخرى يذهب شحم بطنه، ثم شحم ساقيه بعد خمسة أيام كذلك. وإذا فقد شحمه كله لا يستطيع حمل مائة رطل، لذلك فإن التجار الذين يستعملون الإبل بآسيا يعلفونها كل مساء، الأمر الذي يضطرهم إلى أن يأخذوا مع كل جمل يحمل ثقلاً جملاً آخر يحمل علفاً. وهكذا فإن الجمال في قوافل آسيا تسير وهي محمّلة دائماً، سواء في الذهاب والإياب، وتبقى مع ذلك سمينة

ولو ضاعفت الأسفار. لكن التجار الأفارقة الذين يذهبون إلى إثيوبيا لا يهتمون بالرجوع، لأن دوابهم تعود فارغة، إذ ما يأتون به من إثيوبيا قليل الوزن بالنسبة لما يحملون إليها، ولذلك فإن جمالهم تكون هزيلة وتصبح ظهورها مصد ألم لها عندما تصل إلى إثيوبيا. فتباع حينذاك بدراهم معدودة إلى أهل الصحراء الذين يعملون على إصلاح حالها.

ولا يحتاج التجار لعودتهم إلى نوميديا أو إلى بلاد البربر إلا لعدد قليل من الدواب لحملهم ونقل المؤن والذهب وبعض الأشياء الخفيفة.

والإبل ثلاثة أصناف ــ أو إن شئتم ثلاثة أنواع ــ يدعى الصنف الأول منها هُجْنا، وهي ضخمة طويلة وحاملات ممتازة، لكنها لا تستطيع أن تحمل ثقلاً قبل أن تبلغ السنة الرابعة، وحينئذ يصبح أضعفها قادراً على حمل ألف رطل ايطالي. ولوضع الأحمال عليها تلمس بقضيب في ركبتيها وعنقها فتبرك حيناً في الأرض بالغريزة. وبمجرد ما يحس البعير بما يكفيه من الوزن الموضوع عليه يقف. ومن عادة الأفارقة الذين يرغبون في احتفاظ إبلهم بمزاياها كحاملات أن يُخصوها غير محتفظين إلا بذكر واحد لعشر من الإناث.

ويدعى البعير من الصنف الثاني بُخْتاً، وله سنامان، كلاهما صالح لحمل الثقل أو الركاب، لكنه لا يوجد إلا في آسيا.

ويطلق اسم رواحل على إبل النوع الثالث، وهي نحيلة الجسم رقيقة الأعضاء لا تصلح لغير الركوب، لكنها سريعة جداً، أغلبها قادر على قطع مائة ميل أو أكثر في اليوم، مع الاحتفاظ بالعَدْوِ مدة ثمانية أيام أو عشرة في الفلاة بأقل زاد. ويستعملها جميع الأشراف من أعراب نوميديا وأفارقة ليبيا مطايا لهم. وإذا أراد ملك تمبكتو إبلاغ أمر هام إلى تجار نوميديا، أرسله بواسطة ساع راكب أحد هذه الجمال التي تقطع مسافة تسعمائة ميل بين تمبكتو ودرعة أو سجلماسة في ظرف سبعة أيام

أو ثمانية. إلا أنه من الضروري أن يكون للمكلفين بمثل هذه المهام خبرة كبيرة بالصحراء، ويطلبون للسفر ذهاباً وإياباً أجرة قدرها خمسمائة مثقال.

ويكون نزو الإبل في أوائل الشتاء، فلا تتصارع حينئذ بينها فحسب، لكنها تهاجم الذين آذوها حتى تقتلهم، لأنها تتذكر كل لحظة تلقت فيها الضربات من صاحبها. وإذا أمسكت أحداً بين أسنانها تركته يسقط ثم داسته بقوة بأخفافها الأمامية. ولا يدوم نزوها إلا أربعين يوماً ثم تعود هادئة. وتصبر على العطش صبرها على الجوع. ففي استطاعتها أن تبقى خمسة عشر يوماً دون أن تشرب ولا أن تتأذى بذلك. وإذا أورد أحد إبله كل ثلاثة أيام أضرّها ذلك لاعتيادها الورود كل خمسة أيام فقط أو كل تسعة أيام، بل وكل خمسة عشر يوماً إن اقتضى الحال. وللجمال إحساسات عاطفية طبيعية وبعض العواطف الإنسانية. وهكذا فقد يتفق أن الذين يسوقونها في الطريق بين إثيوبيا وبلاد البربر يضطرون إلى قطع مرحلة أطول من المعتاد. فإذا لاحظوا أن جمالهم تأبى أن تسير أبعد من ذلك، لم يرغموها على المسير بالضرب وإنما يغنون لها ألحاناً خاصة تطرب لها وتتابع سيرها بأسرع مما تفعله الخيل المدفوعة بالسوط والمهماز، حتى إن حُداتها يشق عليهم اتباعها.

وشاهدت بالقاهرة جملاً يرقص على إيقاع طبلة، فأخبرني صاحبه بالطريقة التي درَّبه عليها. وإليكم ما فعل: اختار جملاً صغيراً وأخذ يحبسه مدة نصف ساعة في حجرة مبنية على شكل حمام أرضها مسخّنة بموقد، ويكون الرجل في هذه الأثناء خارج الحجرة يعزف بالطبلة. فكان الجمل يرفع رجلاً تارة ورجلاً أخرى تارة كأنه يرقص، لا من أجل هذا العزف ولكن من أجل الحرارة التي كانت تؤلمه. وبعد عشرة أشهر أو سنة من هذا التدريب جاء المربي بالحيوان إلى ساحة عمومية، وبمجرد ما سمع الطبلة ظن أنه على نفس الأرض متذكراً فقط حرارة النار فرفع أرجله بنفس الطريقة،

حتى إن الناظر إليه يظنُّ أنه يرقص. وبما أن العادة طبيعة ثانية فإن الجمل لم يفقد بعد ذلك هذه العادة قط.

وفي إمكاني أن أقول أشياء أخرى كثيرة عن الجمل، إلا أنني أضرب عنها صفحاً حتى لا أكون مملاً.

فرس المغرب

تسمى هذه الخيول في ايطاليا «بربري» وكذلك في اوربا كلها(26) لأنها تأتي من بلاد البربر. وهي من نوع يولد في هذه البلاد. وقد يخطىء من يظن أنها من جنس خاص، لأن الخيل العادية في بلاد البربر مثل التي في غيرها من البلاد.

إلا أن الخيل الأكثر خفة وسرعة سواء في الشام أو مصر أو الجزيرة العربية الصحراوية أو السعيدة (اليمن) أو في آسيا، تسمى الخيول العربية. ويعتقد المؤرخون أن هذا النوع من الخيل نتج عن الأفراس الوحشية التي كانت تتيه في فلوات الجزيرة العربية، وأن العرب جعلوا يدجنونها منذ عهد إسماعيل، فتكاثر عددها وانتشرت في افريقيا كلها. وهذا الرأي عندي صحيح إذ ما زال حتى الآن يشاهد بعض هذه الأفراس الوحشية في قفار الجزيرة العربية وبعض الصحارى الافريقية. وقد رأيت بنفسي في صحراء نوميديا أثناء رحلتي الثانية إليها مهراً ابن سنة ونصف كان أبيض اللون منتصب العرف وحشي الوجه، ولم يكن بعيداً عني بأكثر من رميتي حجر.

وأهم اختبار لسرعة هذه الخيل هو العَدْوُ وراء حيوان يدعى اللمت أو خلف نعامة. فإذا أدرك أحد هذين الحيوانين قُدّر ثمنه بألف مثقال أو مائة بعير.

---

(26) غلب عليها في فرنسا اسم «بارب».

ولا يوجد إلا القليل من الخيول العربية في بلاد البربر، إلا أن أعراب الصحراء وأهل ليبيا يربّون الكثير منها ولا يستعملونها للسفر ولا للحرب بل للصيد فقط. ولا يطعمونها غير لبن النياق مرتين في النهار والليل، وكذلك يحافظون على نشاطها وخفتها ولو أنها تبدو ضامرة، ويتركونها ترعى العشب في فصل الربيع لكنهم لا يركبونها في ذلك الوقت.

وليس للخيل التي يملكها ملوك بلاد البربر مثل هذه السرعة في السباق، لكنها أكثر حسناً وامتلاء، لأنها تعلف الحبوب. وبفضل هذه الخيل ينجون بأنفسهم إذا ما اضطروا إلى الهروب من وجه أعدائهم.

الفرس الوحشيّ

يعتبر الفرس الوحشي كصيد ولا يُرى منه إلا النادر. وإذا اصْطاد أعراب القفر واحداً أكلوه، ويقولون إن لحمه لذيذ لا سيما إذا كان جذعاً. إلا أنه من النادر أن يصطاد فرس وحشي بالخيل والكلاب، بل تصنع حبال توضع عند الماء الذي يرده هذا الحيوان وتغطس بالرمل، وبمجرد ما يضع قوائمه في هذا الفخ يتعرقل بحيث يرغم على البقاء هناك، وهكذا يمكن القبض عليه.

اللَّمْت

هو حيوان يشبه الثور في شكله لكنه أصغر منه، وحوافره وقرونه أدق. يميل لون جلده إلى البياض، إلا أن أظلافه شديدة السواد. وهو سريع جداً بحيث لا يسبقه حيوان آخر في الجري ماعدا بعض الخيول المغربية كما سبق أن قلناه. ويصطاد بسهولة في الصيف لأنه يفقد بسبب حرارة الرمل أظلافه وسرعة عدوه، حتى يمنعه الألم من العدو. وتصطاد الغزلان والوعول لنفس السبب. وتصنع من جلد اللمت تروس صلبة جداً بحيث لا يخترقها شيء باستثناء القذائف النارية، لكن هذه التروس تباع بأثمان باهظة.

الثّور الوحشيّ

يشبه هذا الحيوان الثور، لكنه أصغر منه أيضاً. ويكاد لون البقر الوحشي كله يكون رمادياً أسمر. وهو أيضاً كثير السرعة ولا يوجد إلا في الصحارى أو تخومها. ولحمه ممتاز.

الحمار الوحشيّ

يوجد الكثير من هذه الحمر في القفر، ولونها رمادي أسمر، وهي شديدة السرعة لا تسبقها إلا الخيول المغربية. وعندما تبصر إنساناً تأخذ في النهيق والرفس، وتمكث في مكانها إلى أن يقترب منها الإنسان حتى يوشك أن يمسها بيده فتفر حينئذ. يقنصها أعراب الصحراء بأشراك وآلات أخرى. وتجتمع حمر الوحش في قطيع عند رعيها وورودها الماء. ولحمها جيد إلا أن رائحته كريهة عندما يكون ساخناً تفوح منه رائحة الوحش، لكنه يصير ممتازاً ولذيذاً إذا ترك يبرد مدة ساعتين بعد طهيه.

بقر جبال افريقيا

إن جميع البقر الداجن الذي يولد في جبال افريقيا صغير القامة إلى حد أنه يشبه العجول التي بلغ سنها عامين من عجول البقر العادي. غير أن الجبليين يستخدمونها للحرث ويدعون أنها قوية جداً صبورة على التعب.

الدَّمَّانْ

هذا الحيوان داجن، شكله شكل الخروف، إلا أن قامته قامة حمار قصير وأذناه طويلتان متدليتان. يملك أهل ليبيا قطعان أغنام من هذا النوع، يستخرجون منها كيمة من اللبن يصنعون منه الزبد والجبن، وصوفها جيد لكنه قصير. وللإناث وحدها قرون بخلاف الذكور. والدمان

هادىء جداً، أردت مرة أثناء طفولتي الجامحة أن أختبر قوة هذا الحيوان، فركبت كبشاً حملني مسافة ربع ميل. ولا يوجد الدمان بكثرة إلا في صحارى ليبيا، ويُرى القليل منه مع ذلك في بلاد نوميديا، لكنه يُعتبر هناك كأشياء غير عادية.

الغنم

لا تختلف هذه الغنم عن غيرها إلا بذيلها العظيم. وكلما كان الذيل ضخمًا كان الحيوان سميناً. ومنها ما يزن ذيله خمسة عشر إلى عشرين رطلاً، ويحدث ذلك عندما تتغذى بنفسها. لكن الكثير من الناس في مصر يتعاطون إلى تسمينها، ويطعمونها النخالة والحبوب، فيتضخم ذيلها لدرجة أن الذين يعلفونها يربطونه في عربة صغيرة لتتمكن من السير. وشاهدت بأسيوط، وهي مدينة مصرية على النيل بعيدة بمائة وخمسين ميلاً(27) من القاهرة، أحد هذه الخرفان يزن ذيلها ثمانين رطلاً. ويؤكد الكثير من الناس أنهم رأوا منها ما يزن مائة وخمسين رطلاً. وشحم هذا الحيوان كله في ذيله. ولا يوجد إلا في تونس ومصر.

الأسد

هذه الحيوانات وحشية وخطيرة على سائر الحيوانات. وهي أقوى منها وأكثر شجاعة وشراسة، لا تفترس الأسود الحيوانات فقط بل الناس أيضاً، ومنها ما تتجرأ في بعض الأماكن على مهاجمة مائتي فارس، يرتمي كل أسد على القطيع بدون تردد مختطفاً منه فريسة يحملها إلى الغابة أو العرين الذي يحتضن أشباله. أما الفرسان فيقتل منهم ــ كما قلت آنفاً ــ خمسة أو ستة. والأسود التي تعيش في الجبال الباردة أقل جرأة وشراسة وإذاية،

---

(27) سبق قلم، بل مائتين وخمسون ميلا، وهو الرقم الصحيح الذي قدّمه المؤلف عندما وصف أسيوط في القسم السابق.

لا سيما بالنسبة للإنسان. وبعكس ذلك، كلما اشتد الحر زادت شراستها وجرأتها. ذلك شأن الأسود التي توجد بين تامسنا ومملكة فاس، وفي صحراء أنكاد بالقرب من تلمسان، وبين عنابة وتونس. وهي أشهر أسود افريقيا كلها وأكثرها شراسة. تتقاتل بينها قتالاً دامياً في الشتاء عند النزو، ويا تعس من تصادفه! ويشاهد أحياناً عشرة أسود أو اثنا عشر تتبع نفس اللبؤة.

وقد سمعت من رجال ونساء كثيرين أن ما على المرأة إذا وجدت نفسها أمام أسد في مكان منفرد إلا أن تكشف له عن عورتها، فيزأر إذ ذاك الأسد زئيراً قوياً ويغض الطرف ثم ينصرف. وليعتقد كل أحد ما شاء!

وأخيراً فإن الأسد يحمل في فمه كل ما اصطاده ولو كان جملاً، وقد كدت مرتين أن أكون فريسة الأسود، ونجوت فيهما من الخطر بلطف الله.

النُّمور

تعيش هذه الحيوانات في غابات بلاد البربر، وهي قوية شرسة لكنها لا تؤذي الإنسان إلا في حالات نادرة حين تصادف أحداً في بعض الطرق الضيقة التي لا تساعد على الفرار. وتهاجم أيضاً كل من صرخ أو تحداها، فيقفز الوحش عندئذ على ظهر الإنسان، ممزقاً وجهه بأظفاره ومقتلعاً كل ما أمكنه من لحمه. ويكسر أحياناً رأسه ويقتله. لا يهاجم النمر أبداً قطعان الماشية، لكنه عدوٌّ لدود للكلاب فيقتلها ويفترسها. ومن عادة سكان جبال ناحية قسنطينة أن يصطادوا النمر على الخيل. يسدون أمامه جميع المنافذ، وعندما يحاول الفرار يجد على المنفذ عدداً من الفرسان، فيسرع إلى الآخر فيجد فرساناً آخرين. ويُقتل في الأخير بعد أن يجري عبثاً في كل الجهات. ويفرض على كل من تركه يخلص من المكان الذي يحرسه أن يقيم وليمة لسائر الصيادين ولو بلغ عددهم ثلاثمائة صياد.

الضَّبُع

الضبع حيوان في حجم الذئب وشكله تقريباً، وتشبه رجلاه ويداه أعضاء الإنسان السفلى، ويسميه العرب ضبعاً والأفارقة إفِيس(28). لا يؤذي هذا الحيوان غيره من الحيوانات، لكنه ينبش عن القبور ويأكل جثث الأموات. وهو كريه بليد، إذا اكتشف الصيادون المغارة التي يأوي إليها قصدوها وهم يضربون على الطبلة ويغنون. فيطرب الحيوان إلى هذا الغناء حتى إنه لا ينتبه إلى الرجل الذي يربط أرجله بحبل متين، فإذا شد وثاقه أخرج من جحره وقتله الصيادون الآخرون(29).

قطُّ الزَّبَاد

هذه القطط وحشية بطبيعتها، موجودة في غابات إثيوبيا، يصطادها التجار وهي صغيرة، فيربونها في القفص ويغذونها باللبن وحساء النخالة، بالإضافة إلى اللحم. ويستخرجون منها الزباد مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، وما هو إلا عرق الحيوان. فيضرب القطّ بقضيب صغير ليتحرك في قفصه حتى يعرق، ثم يجمع العرق تحت إبطيه وفخذيه وذنبه، وذلك ما يكوّن الزباد.

القِرَدَة

القردة أجناس مختلفة، منها المذنَّبة التي تدعى «مونِّي» بالايطالية، ومنها غير المذنَّبة وتسمى «بابويني». توجد كمية وافرة من القردة في جبال موريطانيا وجبال قسنطينة. وهي شبيهة جداً بالإنسان ـ كما هو معروف ـ

---

(28) كتب في الأصل أسيف.

(29) إن ميل الضبع للموسيقى مشبوه فيه كثيراً، لكن أمثلة عديدة تبرهن على أن هذا الحيوان يصاب بنوع من الكبت عندما يفاجأ في مغارته.

لا في أرجلها وأيديها فحسب، ولكن أيضاً في وجوهها. وقد حبتها الطبيعة بدهاء وذكاء عجيبين، تتغذى بالأعشاب والحبوب. وإذا أرادت أن تختلس السنابل جاء منها عشرون أو ثلاثون مجتمعين، وبقي واحد خارج الحقل ليعس، وبمجرد ما يرى صاحب الحقل قادماً يطلق صرخات حادة، فتسرع الأخرى بالهرب وهي تقفز على الأشجار قفزات عظيمة من شجرة إلى أخرى. وتحمل الإناث صغارها على أكتافها وتقفز بها وهي متعلقة بها. وتقوم القردة المدربة بأشياء عجيبة. وهي حيوانات غضوبة شريرة، لكنها تهدأ بسهولة.

الأرانب

توجد الأرانب الوحشية بكمية كثيرة في جبال غمارة وموريطانيا، وتصاد فيها كما تصاد الأرانب البرية.

يقول الكثير من جغرافيي البلاد إن هذه الحيوانات لم تكن وحشية في قديم الزمان، إلا أنه بعد أن استولى الرومان والقوط على دول افريقيا أصبح عدد كثير من المدن والقصور مهجوراً، فتوحشت الأرانب التي كانت فيها والتجأت إلى الغابات. ولا يجزم بصحة هذا القول أو بعدم صحته، لكنه يمكن أن يصدق، لأن لحم هذه الأرانب الوحشية له نفس لون وطعم لحم الأرانب الداجنة.

الأسماك

سمك الْعَنْبَرة

لنتكلم الآن على الأسماك: العنبرة سمك مرعب فظيع في شكله وحجمه، ولا يُرى أبداً إلا ميتاً، لأن البحر يقذف به على الشاطىء. ورأسه صلب جداً كأنه من حجر. ومنه ما يبلغ طوله خمسة وعشرين ذراعاً أو أكثر. ويقول سكان ساحل المحيط إن هذا السمك هو الذي يفرز العنبر، ولكنهم يختلفون فيما إذا كان يحصل من برازه أو من منيه. ومهما يكن من أمر فإنه حريّ بأن يدعى حوتاً بسبب شكله.

فرسُ الماء

يوجد هذا الحيوان في النيجر وكذلك في النيل، له شكل فرس لكن بدون شعر، جلده صلب جداً وقامته قامة حمار. يعيش في الماء والبر على السواء، لكنه لا يخرج من الماء إلا ليلاً. وهو شرير خطير على الزوارق الصغيرة التي تنحدر في النيجر وهي محملة، فإذا اصطدمت بظهره قلبها وأغرقها. ويا ويل لمن لا يحسن السباحة!

ثَوْرُ الماء

هو حيوان يشبه الثور في جميع أطرافه، لكنه أصغر منه بكثير، وقامته قريبة من قامة عجل ابن ستة أشهر. يوجد في النيجر وكذلك في النيل، ويأخذ الصيادون ما يعيش من ثيران الماء طويلاً في البر. وجلودها شديدة

الصلابة. ورأيت واحداً منها في القاهرة يسوقه رجل بسلسلة في عنقه، قال لي إنه اصطاده في النيل قرب إسنا، وهي مدينة على بعد نحو أربعمائة ميل جنوب القاهرة(30).

السُّلَحْفَاةُ العِمْلاقة

كان الواجب أن يُعدّ هذا الحيوان من جملة الحيوانات البرية لأنه يعيش في الصحارى، ويوجد في صحراء ليبيا كثير من هذه السلاحف التي يبلغ حجمها بوطة(31). وذكر الجغرافي البكري في كتابه عن ممالك افريقيا ومسالكها أن رجلاً فاضلاً كان ليلة في أحد قفار ليبيا هذه وقد تعب من سفره، فأبصر بقربه صخرة عالية رأى أن ينام عليها ليتقي أذى بعض الدواب السامة، ففعل، ووجد نفسه في صباح الغد على مسافة ثلاثة أميال من المكان الذي توقف فيه. فذهل ولاحظ إذاك أن ما توهمه صخرة كان سلحفاة عملاقة، تظل واقفة بالنهار وتسير ليلاً لترعى لكن ببطء شديد بحيث لا تثير الانتباه(32). ولم أرَ قط سلاحف بهذا الحجم، إلا أنني رأيت بعضها في حجم برميل كبير(33). ويزعم سكان الصحراء أن كل من أصيب بالبرص منذ أقل من سبع سنوات وأكل من لحمها طيلة سبعة أيام شُفي منه. وهم يعرفون عدة وصفات سرية مبنية على خصائص هذا الحيوان. إلا أنني لن أتكلم عنها لأن هذا الكتيب ليس تأليفاً في الطب.

---

(30) تقع إسنا، على بعد أربعمائة وستة وتسعين ميلاً، جنوب القاهرة على طريق النهر.

(31) البوطة: مكيال للخمر سعته نحو 933 ليتر.

(32) ذكر البكري فعلاً السلاحف العملاقة المائية منها والبرية، لكن القصة التي يرويها المؤلف ليست نفس القصة، فالأمر يتعلق بمسافر وضع أمتعته على ما توهمه حجرة ضخمة لوقايتها من الأرضة ولم يجد شيئاً في الصباح. فتتبع أثر السلاحفاة ووجدها بعيدة من هناك بعدة أميال والأمتعة لم تزل على ظهرها.

(33) الرميل أو البريلي: هو جزء من ستة عشر جزءاً من البوطة (نحو 58 ليتراً).

التّمساح

يُوجد كثير من التماسيح في النيجر والنيل، وهو حيوان خبيث يؤذي كثيراً، ويبلغ طوله اثني عشر ذراعاً، وطول ذنبه بقدر طول سائر جسده، إلا أنه من النادر العثور على ماله هذه الأبعاد. له أربعة أرجل وشكله تماماً شكل الوزغ، ولا يتعدى علوه ذراعاً ونصفاً. يبدو ذنبه وكأنه مؤلف من سلسلة حلقات، وجلده صلب لدرجة أنه لا يمكن أن تخترقه قذيفة قوية. ولا تأكل بعض التماسيح غير السمك، ويأكل بعضها الحيوانات البرية والإنسان، فتختبىء بدهاء عظيم قرب ضفاف النهر التي يختلف إليها الناس وكثير من الدواب، فإذا أبصرت أحداً رمت بذنبها فجأة خارج الماء، وأحاطت بالرجل أو الحيوان ثم سحبته إلى الماء وافترسته.

وإذا أكل التمساح تحرّك فكه الأعلى وحده، لأن فكه الأسفل ملتحم مع عظام الصدر. وليست جميع التماسيح من هذا النوع، وإلا لما استطاع أحد أن يسكن على ضفاف النيجر أو النيل.

كنت مبحراً مرة في سفينة ذاهبة من القاهرة إلى قنا، وهي مدينة في مصر العليا على بعد أربعمائة ميل من القاهرة، وبلغنا منتصف الرحلة في ليلة احتجب فيها القمر قليلاً بالسحب، وكانت الرياح تسرع بنا، والبحّارة والمسافرون كلهم نيام. أما أنا فدخلت قمريتي حيث كنت اشتغل تحت ضوء شمعة، وإذا بشيخ فاضل يناديني، وكان ساهراً يصلي. فقال لي: «يا هذا، نبِّه أحد أصحابنا ليعينني على التقاط قطعة كبيرة من الخشب تنفعنا كثيراً غداً لطهي الطعام!» فأجبته: «أتريد أن آتي أنا؟ ذلك خير من إيقاظ أحد في هذه الساعة». وكان الوقت منتصف الليل تقريباً. فقال لي الشيخ: «سأريك أنني قادر على إمساكها وحدي!». ولما قدَّر أن السفينة صارت قريبة من قطعة الخشب أدلى يديه ليوثقها بربقة، وفي الوقت ذاته برز من الماء ذنب طويل استدار على وسط الشيخ وأسقطه حيناً في النهر، فجعلت أصيح، وقفز جميع من كانوا في السفينة على أرجلهم، ثم أنزل

الشراع وتوقفت السفينة، فارتمى عدد كثير من الناس في الماء وبقينا ساعة كاملة والسفينة مربوطة في حافة النهر لكن بدون جدوى. ولم يعثر للشيخ على أثر، وتيقّن الجمع أن التمساح افترسه.

وبينما كنا نتابع طريقنا في النهر أبصرنا منها جماعات تتركب من عشرة إلى اثني عشر تمساحاً على جُزَيرات النيل، وكانت فاتحة أفواهها في الشمس، بينما كانت طيور صغيرة بيضاء في حجم السمنة تدخلها وتمكث فيها هنيهة ثم تخرج وتطير إلى جهة أخرى. فاستفسرت عن الأمر فقيل لي إن التماسيح تأكل كثيراً من السمك وغيره من الحيوانات، فيبقى دائمًا على لثّاتها وبين أسنانها فتات اللحم فيتعفن ويتولد عنه دود صغير يزعجها، فتبصر الطيور في تحليقها هذا الدود وتدخل في فم التمساح لتأكله. وفي إمكان التمساح أن يطبق فمه ليزدرد الطائر لكن لهذا الطائر في قمة رأسه شوكة صلبة وحادة تخز حنك التمساح وترغمه على فتح فيه ثانياً فيتمكن الطائر من النجاة. ولا شك أنني لو حصلت على أحد هذه الطيور لرويت هذه القصة بكيفية أكثر وثوقاً.

تبيض التماسيح في الأرض ثم تغطي بيضها بالرمل، وبمجرد ما تتولد الصغار تدخل النهر، وهناك أيضاً بعض التماسيح التي تقيم بالصحراء وتتحاشى الماء، وهي سامة بخلاف التي تعيش في النهر.

ويأكل كثير من الناس في مصر التمساح ويؤكدون أنه لذيذ جداً، ويباع شحمه في القاهرة بثمن مرتفع، يقال إنه نافع لشفاء الجروح المزمنة والأكالية.

وتصطاد التماسيح بالكيفية الآتية: يأخذ الصيادون حبلاً غليظاً طوله مائة ذراع أو أكثر، يثبتون أحد طرفيه بقوة في شجرة ضخمة أو عمود مغروز لهذا الغرض على حافة النيل، ويثبتون في الطرف الآخر كلّاباً من حديد طوله ذراع في غلظ أصبع الإنسان يربطون فيه شاة أو عنزة حية. وعندما يصيح الحيوان يخرج التمساح من الماء متوجهاً إلى الضفة ويبتلع

الحيوان بسرعة مع كُلاب الحديد الذي ينفذ إلى أمعائه ويثبت بحيث يستحيل إخراجه. وعندئذ يأخذ الصيادون في إرخاء الحبل تارة وجرّه إليهم أخرى، فيتخبّط التمساح ضارباً بذيله يميناً وشمالاً إلى أن يقهر ويخرّ صريعاً كالميت. فيقتله الصيادون حينئذ بالحراب ويشقون فمه وباطن أرجله والمكان الذي يرق فيه الجلد من بطنه، بينما يكون جلد ظهره غليظاً صلباً لدرجة أن ضربة من قاذفة أو مدفع صغير لا تكاد تكفي لاختراقه.

ورأيت على أسوار مدينة قنا أكثر من ثلاثمائة رأس تمساح معلقة فاغرة أفواهها، وهي أفواه في غاية السعة والكبر تستطيع بقرة كاملة أن تدخل في واحد منها، وكانت أسنانها حادة طويلة. وجميع الصيادين المصريين عندما يصطادون تمساحاً يقطعون رأسه ويعلقونه على السور، كما يفعل الصيادون برؤوس الحيوانات المفترسة.

التنّين

توجد في بعض مغارات الأطلس تنانين عظيمة، وهي دواب (حيات) ثقيلة تتحرك بصعوبة، لأن جزءاً من جسمها وهو الأعلى غليظ جداً، والباقي دقيق جداً، سواء من جهة الذيل أو الرأس. وهي سامة جداً، فإذا اتفق أن أحداً لسعته، تفتت لحمه حيناً، وصار ليناً كالصابون ولا يستطيع النجاة.

الهِيْدْرَة

الهيدرة أفعى قصيرة دقيقة الرأس والذنب، توجد بكثرة في صحراء ليبيا، وسمّها مؤثّر جداً. يقال إن من لسعته هذه الأفعى لا دواء له سوى بتر العضو الملسوع قبل سريان السم إلى سائر الأعضاء.

الضَّبُّ

يعيش هذا الحيوان في القفار ويشبه الوزغ في شكله، لكنه أضخم منه. طوله ذراع رجل وعرضه أربعة أصابيع، لا يشرب أبداً، وإذا ما أرغم على الشرب بوضع الماء في فيه مات لحينه. وبيضه كبيض السلحفاة. ولا سمّ فيه. رأيت أعراباً يأخذون منه في الصحراء فأخذت منه بدوري وذبحته، غير أنه لا يسيل منه دم كثير، ولا يسلخ جلده إلا عند أكله بعد أن يشوى. ولحمه لذيذ كلحم الضفدع، وله نفس الطعم. وهو سريع كالوزغ. وإذا اختفى في غار وبقي ذيله خارجاً فلا تستطيع أية قوة إخراجه منه، فالصيادون يوسعون الغار بمعول صغير ويمسكونه. وإذا قرب من النار بعد ثلاثة أيام من ذبحه تحرّك كما لو كان قد ذبح في تلك الساعة.

الْوَرَل

الورل(34) حيوان يشبه الضب إلا أنه أكبر منه، وسمّه في رأسه وذنبه. ورأيت أعراباً يقطعون هذين الطرفين ويأكلونها. لونه قبيح وشكله كريه، بحيث إنني لم أقدم قط على أكله.

الحِرْبَاء

الحرباء حيوان في حجم الوزغ، لكنه قبيح أحدب هزيل ذو ذنب طويل كذنب الفأر. يسير ببطء ويتغذى بالهواء وأشعة الشمس(35)، فبمجرد ما يظهر شعاع يدور نحوه فاتحاً فاه ويدور معه أينما دار. ويتغير لونه حسب تغير الأماكن التي يوجد فيها، فإذا كان فوق سواد

---

(34) حُرّف هذا الاسم العربي في الفرنسية إلى فرن، وليس ساماً كما ذكر المؤلف.

(35) لقد اعتُقد هذا طويلاً، إذ أن سرعتها المفرطة التي تصيد بها الذباب بلسانها اللزج كانت تخفى على الملاحظ السطحي كيفية اقتيات هذا الحيوان.

صار أسود، أو خضرة صار أخضر، وهكذا دواليك بالنسبة لسائر الألوان. وقد قمت بنفسي بالتجربة. والحرباء عدوّة لدود للحيات السامة، فإذا أبصرت إحداها نائمة تحت شجرة تسلقت الشجرة حيناً واختارت مكاناً يكون فيه عمودياً تماماً بالنسبة لرأس الأفعى. ثم نفثت خيطاً من لعاب كلعاب الضفدع تتكوّن في طرفه قطرة كجوهرة صغيرة، وإذا رأت أن الخيط لا ينزل عمودياً على رأس الأفعى انتقلت حتى تسقط القطرة على رأسها. ومن خاصيات هذه القطرة أن تنفذ إلى رأس الحية وتقتلها بمجرد ما تلمسه. وقد روى كتابنا الأفارقة عدة أشياء عن خاصيات الحرباء وفوائدها لم أعد أتذكرها الآن.

الطيور

النّعامة

لنتكلم قليلاً عن الطيور أيضاً.

النعامة طائر وحشي طويل القامة، يشبه شكله قليلاً شكل الأوزة، لكن قوائم النعامة وعنقها طويلة جداً، منها ما يبلغ طول عنقها ذراعين، وكذلك الساقان. وجسم النعامة ضخم، وجناحاها مكسوّان بريش كبير لا يساعدها على الطيران. لكنها عندما تعدو تستعين بخفق الجناحين والذنب. وريشها أسود وأبيض كريش اللقلاق. وتعيش عادة في القفار اليابسة حيث لا يوجد ماء. وتضع بيضها في الرمل ما بين عشرة إلى اثنتي عشرة بيضة، وكل بيضة ضخمة بحجم قذيفة مدفع من زنة خمسة عشر إلى ستة عشر رطلاً. لكن النعامات الصغيرة تضع بيضاً أصغر. وما إن تبيض النعامة حتى تنسى المكان الذي وضعت فيه بيضها لضعف ذاكرتها، ويؤدّي ذلك إلى أن الأنثى التي تجد بيضاً سواء كان لها أو لغيرها تحتضنه وتدفئه، وبمجرد ما تتولّد الفراخ تسرح في البادية باحثة عن قوتها. وتكون سريعة جداً في السباق قبل أن ينبت ريشها حتى لا يمكن اللحاق بها. والنعامة غبية لا تحس بأي شيء من أذنيها لأنها صمّاء، وتأكل كل ما تجده حتى الحديد. ولحمها لزج يثير القيء لاسيما لحم الفخذين، ومع ذلك تؤكل كمية وافرة منها في أقاليم نوميديا، حيث تصطاد وهي صغيرة فتُعلف

وتسمّن، كما أسلفنا القول(36). وتسير هذه الطيور في الصحراء متتابعة الواحدة وراء الأخرى، ومن شاهدها من بعيد ظنها فرساناً. وكثيراً ما أحدثت للقوافل قلقاً وفزعاً شديدين. وقد أكلتُ بدوري لحم النعامة عندما كنت في نوميديا فلم أجده رديئاً جداً.

النُّسور

توجد عدة أنواع متميّزة من هذه الطيور حسب خاصياتها وقامتها ولونها. ويسمّى نوعها الأساسي نسراً باللغة العربية.

النَّسر

النسر أكبر طيور افريقيا، وهو أضخم من الكركي لكن رجليه وعنقه ومنقاره أقلّ طولاً. ويرتفع في الجو عندما يحلّق حتى يختفي عن النظر، وإذا أبصر جيفة انقضّ عليها فوراً. وعندما يطير يكون دائماً مع نسور أخرى سِرباً. ويعمّر طويلاً بحيث يشاهد كثير من النسور وهي صلعاء لا ريشة على رؤوسها كما لو حلقت. وتعيش هذه الطيور سنوات عديدة ــ كما قلنا ــ فتسقط مع مرور الزمان قوادمها وخوافيها وسائر ريشها، وتمكث في النهاية في عشّها كأنها حديثة عهد بالولادة تأتي إليها الصغار بقوتها. وسمعت أن هذا الطائر يحمل اسم (فولطوري) بالإيطالية فلم أتمكّن من تحقيق ذلك. ويعشّش عادة في صخور قمم الجبال الشاهقة الخالية ولاسيما في الأطلس، ومع ذلك فإن من يختلفون إلى هذه الأماكن يأخذون بعض هذه الطيور.

البَازي

يسمّى البازي (أسطوري) باللغة الإيطالية. وتوجد هذه الطيور بكثرة كاثرة في افريقيا، بعضها أبيض يُصطاد في جبال قفار نوميديا.

---

(36) في القسم السادس عند وصف درعة ــ ص 118 ــ.

وهو أغلاها ثمناً وأجودها، وبه تصطاد الكراكي، وتوجد منه أنواع مختلفة: منها ما يصلح لصيد السمّاني والحجل، ومنها ما يصلح لصيد الأرانب.

وتُدرّب النسور في افريقيا على قنص الثعالب والذئاب، وعلى المصارعة فيما بينها. لكن النسور المتدربة على المصارعة تمسك هذه الوحوش من ظهرها بمخالبها، ومن رأسها بمنقارها حتى لا تتمكّن من عضّها، فتنقلب على ظهرها، إلا أن النسور لا تطلقها حتى تقتلها أو تفقأ أعينها.

الخُفّاش

توجد هذه الطيور الكريهة المعادية للنور في العالم بأسره، إلا أن في مغارات الأطلس كثيراً منها. وهي في حجم الحمام بل أكبر، لاسيما فيما يتعلّق بطول أجنحتها. إنني لم أرها شخصياً قط، ولكن حدّثني عنها كثير ممن يحفرون الأرض بحثاً عن الكنوز.

البَبّغاء

توجد هذه الطيور بكثرة في غابات إثيوبيا. ريشها مختلف متعدد الألوان، وأفضلها الخضراء التي تتعلم أحسن من غيرها كيف تقلّد صوت الإنسان.

ويشاهد كثير منها في حجم الحمام مختلف الألوان: من أسود وأحمر ورمادي أسمر، وليست قادرة تماماً على تقليد كلام الإنسان، لكن غناءها عذب شجي.

الجَراد

يشاهد أحياناً بافريقيا كمية وافرة من هذه الحيوانات، حتى إنها لتحجب ضوء الشمس عندما تطير مثلما يفعل السحاب. تأكل من الأشجار

الفواكه والأوراق. وتترك عند ذهابها بيضاً يتولّد منه جراد آخر لا يطير، لكنه أسوأ من أمهاته، يلتهم حتى لحاء الأشجار. وحيثما مرّ الجراد ترك مجاعة كبيرة، لاسيما في موريطانيا.

ورغم ذلك فإن سكان الجزيرة العربية الصحراوية وسكان ليبيا يعتبرون هجوم الجراد من أسعد الحوادث. فالبعض منهم يأكلونه مطبوخاً والبعض الآخر يُجفّفونه في الشمس ثم يسحقونه، فيحصلون من ذلك على نوع من الدقيق يستهلكونه.

تلك هي تقريباً جميع مميّزات هذه الطيور والحيوانات التي لا توجد بأوربا أو التي تختلف عن مثيلاتها الأوربية في بعض النقط. وسنقدّم الآن نبذة يسيرة عن المعادن التي توجد في افريقيا، وبعض الفواكه والأشجار المغروسة والبرية، ثم نختتم هذا المؤلّف.

المعادن

الملح

لا يوجد في معظم أجزاء افريقيا ملح غير الذي يُستخرج من المناجم بحفر سراديب كما يفعل بالرخام والجبس. ومنه الرمادي والأبيض والأحمر. ويكثر جداً في بلاد البربر. ويقلّ في نوميديا لكنه كاف. ولا وجود له في بلاد السودان خصوصاً في إثيوبيا السفلى، حيث يساوي ثمن الرطل منه نصف مثقال. لذلك لم يتعوّد أهل هذه البلاد وضع مملحات على الخوان، لكنهم عندما يأكلون الخبز يمسكون بقطعة ملح في يدهم فيلحسونها مع كل مضغة حتى لا يستهلكوه بكثرة.

ويجمد الملح في الصيف في بعض البحيرات الصغيرة والغدران ببلاد البربر، مكوّناً طبقة بيضاء مستقيمة كما يشاهد ذلك مثلاً في ضواحي فاس.

الكُحْل

ينشأ هذا المعدن في بعض أماكن افريقيا في مناجم الرصاص، ويقوم العمال المدرّبون بفصله عن الرصاص بواسطة الكبريت. ويوجد بكثرة كبيرة في سفح الأطلس بجهة الجنوب، لاسيما في التخوم بين نوميديا ومملكة فاس، كما يوجد الكبريت أيضاً بكثرة في مواضع أخرى.

الفَرْبْيُون

الفربيون صمغ أحد النباتات التي تنمو على شكل قدم الخرشف البري، وتكبر بين فروع هذا النبات ثمارٌ في حجم الخيار. تكون خضراء مكسوّة بحبيبات كالخيار، إلا أنها أطول منه، يبلغ طول بعضها ذراعاً فأكثر. لا تنبت هذه الثمار على فروع النبات لكنها تبرز من الأرض كجذع أو ساق. ويتولّد من قدم فربيون واحد وعشرون أو خمسة وعشرون أو ثلاثون ثمرة. وعندما تنضج يشقّها الفلاحون بسكين فيخرج منها عصير كالحليب يصير لزجاً؛ ثم يعزل العصير بسكين ويُجعل في قِرب حيث يجفّ. ونذكر أن هذا النبات مغطّى بالشوك.

القَطِران

القطران نوعان: نوع طبيعي يلقط من فوق أحجار توجد في قلب بعض العيون التي ينشر ماؤها رائحة كريهة جداً وله نفس الطعم(37)، ونوع اصطناعي يُستخرج من العرعر أو الصنوبر، وقد رأيت كيف يُصنع في الأطلس: يتّخذون فرناً مستديراً عميقاً في طرفه الأسفل ثقب متّصل بتجويف على شكل صحن. ثم يأخذون فروعاً خضراء من العرعر أو الصنوبر فيكسرونها قطعاً صغيرة ويضعونها في الفرن الذي يغلق بابه ويُسخّن بنار معتدلة. فيقطر الخشب عند تسخينه وتسيل المادة في التجويف من الثقب المتّخذ لهذا الغرض في قعر الفرن. وهكذا يجمع القطران ويوضع في القِرَب.

المَوز

هذه الفاكهة جميلة حلوة جداً، وهي كبيرة في حجم خيار صغير، تنبت على شجيرة لها أوراق كبيرة عريضة طولها ذراع. ويقول فقهاء المسلمين إن هذه هي الثمرة التي حرّم الله على حواء وآدم. وفعلاً لما أكلاها

---

(37) هو البيتوم أو البترول.

وأرادا ستر عورتهما أخذا يخصفان عليهما من ورق الموز، وهو أنسب من غيره لهذا الغرض. وينبت الموز بكثرة في سلا إحدى مدن مملكة فاس، لكن معظمه ينبت في مصر لاسيما في دمياط.

سَنْط العنبر

إن الأشجار التي تنتج العنبر ضخمة جداً، أوراقها شبيهة تقريباً بأوراق شجر التوت، وأزهارها كبيرة شديدة البياض. وتثمر كثيراً إلى درجة أنه ينقص الكثير من ثمارها قبل نضجها للتخفيف على الفروع حتى لا تتكسّر تحت الثقل. ولا تنبت إلا في مصر.

التَّرْفَاس

يمكن القول إن الترفاس جذر نباتي أكثر مما هو ثمر. ويشبه الكمأة لكنه أضخم منها وذو قشرة بيضاء. ينبت في الرمل في الأماكن الحارة. ويُعرف وجوده بحدبات في الأرض مشقّقة شيئاً ما. بعضه في حجم الجوز والبعض الآخر في حجم البرتقال. وهو ثمر منعش في نظر الأطباء الذين يدعونه كمئاً. ينبت بكثرة في صحراء نوميديا. ويتلذّذ الأعراب بأكله كما لو كان سكراً. والواقع أنه غذاء لطيف جداً إذا كان مشوياً على الجمر ثم قُشر وطبخ في مرق دسم. يأكله الأعراب مطبوخاً في الماء أو اللبن. ويوجد أيضاً بكثرة في الرمل بضواحي مدينة سلا(38).

النَّخْل

لا نقول الآن شيئاً عن النخل الذي تكلمنا عنه عند وصفنا لسجلماسة، إحدى مدن نوميديا.

---

(38) كل ما ذكره المؤلف عن الترفاس صحيح، ومازال حتى اليوم كثيراً في غابة معمورة بضواحي سلا.

تين مصر المعروف عندهم بالجُمَّيز

إن خشب هذه الشجرة وأوراقها كخشب وأوراق غيرها من شجر التين، لكنها في غاية الضخامة والارتفاع. ولا تنبت ثمارها بين الأوراق على الأغصان في أطراف الأفنان، بل على جذع الشجرة نفسه، حيث لا توجد الأوراق. ولها نفس مذاق التين العادي، لكن قشرها غليظ جداً ولونها بنفسجي.

شجرة الطَّلْح

شجرة الطلح كبيرة شائكة لها أوراق كالعرعر، وتنتج صمغاً شبيهاً بالمصطكى يستعمله عقاقيريُّو افريقيا لتقليد المصطكى، إذ له نفس اللون والرائحة تقريباً. ويوجد الطلح في قفار نوميديا وليبيا، وكذلك في بلاد السودان. إلا أن ما يوجد منه في نوميديا يكون داخله أبيض عندما يشقّ كغيره من الشجر، بينما يكون داخله أسود تماماً في بلاد السودان. وخشب هذه الأشجار هو الذي يسمّى (سانكْو) في إيطاليا، وتصنع منه بعض الأشياء الجميلة الأنيقة. ويستعمل الآن أطباء افريقيا الخشب البنفسجي في علاج الداء الافرنجي، وتسمّيه العامة لذلك خشب الداء الافرنجي.

تَسَرْغِينَتْ

تسرغينت(39) جذر عطريّ يوجد في ساحل المحيط إلى جهة الغرب، يحمله تجار موريطانيا إلى بلاد السودان حيث يُستعمل كعطر رفيع. ولا حاجة إلى حرقه أو تسخينه، لأنه إذا حُفظ في حجرة نشر فيها نفس الرائحة، على أية حال. يساوي حمل بعير من تسرغينت في موريطانيا مثقالاً ونصفاً، وثمن نفس الحمل في بلاد السودان ثمانون مثقالاً أو مائة مثقال، وأحياناً أكثر من ذلك.

---

(39) صيغة تأنيث بربرية، والاسم العربي سرغينة.

الـــدَّادْ

الداد نبات جذره سامّ إلى درجة أن زنة درهم(40) من الماء المقطّر منه كاف لقتل رجل في ساعة واحدة. وهذا شيء معروف في افريقيا كلها حتى عند النساء.

السَّـــرْمَق

السرمق أيضاً جذر نبات ينمو في القسم الغربي للأطلس. ومن خصائصه ــ حسب قول الناس ــ أنه يقوّي العضو التناسلي للرجل، ويمكّن من يتناوله في معجون معسول من مضاعفة نكاحه. ويقال أيضاً إن من اتّفق له أن بال على هذا الجذر أنعظ لحينه. ولا أخفي كذلك ما يحكيه جميع سكان الأطلس من أنهم رأوا عدداً كثيراً من الفتيات اللواتي يرعين ماشيتهن في الجبل فقدن بكارتهن مصادفة لكونهن بلن على هذا الجذر. فأجبت ممازحاً من روى لي ذلك أنني أثق فعلاً بما يقولون عن هذا الجذر، وأن هؤلاء الفتيات تسمّمن كثيراً لدرجة أنهن لم يفقدن بكارتهن فحسب، بل انتفخ جسمهن كله!

* * *

والحاصل أن ذلك ما شاهدته ــ أنا يوحنا ليون ــ مما هو جميل وجدير بالذكر في كل افريقيا التي جبتها من جهة إلى أخرى. وقد أثبت بعناية يوماً فيوماً كل ما رأيته يستحق الذكر كما شاهدته. وما لم أشاهده أخبرني به من يوثق به إخباراً صحيحاً كاملاً. ثم رتّبت هذه المذكرات بقدر استطاعتي، وألّفت منها في الأخير كتاباً عندما كنت بروما في العام الميلادي 1526 في العاشر من مارس.

وهنا ينتهي كتاب يوحنا ليون الأندلسي المولد، المغربي النشأة.

---

(40) زنة الدرهم (الطبي) نحو 3 غرامات ونصف غرام. ونشير إلى أن الداد مازال حتى اليوم معروفاً عند العشابين بالمغرب، ويوصف في العلاج بخوراً، ولا سيّما لإبطال السحر. ويذكرون أنه سام، لكن ليس بهذه الخطورة التي يذكرها المؤلف.

فهرس موضوعات الجزء الثاني
من كتاب وصف افريقيا

القسم الرابع
مملكة تلمسان

مملكة تلمسان 7
صحراء أنڭاد 11
قصر تمزيزدكت 11
قصر إيسْلي 12
مدينة وجدة 12
مدينة ندرومة 13
مدينة تبحريت 14
مدينة هنين 15
أرشكول 16
تلمسان المدينة الكبرى 17
عادات حاشية الملك ومصالحها 22
مدينة العباد 24
تفسرة 24
تسلة 25

إقليم بني راشد 26
مدينة البطحاء 27
مدينة وهران 30
المرسى الكبير 31
مزگران 32
مستغانم 32
بريشك 32
مدينة شرشال 34
مليانة 34
تنس 35
مازونة 36
الجزائر 37
تقدمت 40
المدية 41
تمند فوست 42
دلس 42
جبال مملكة تلمسان 43
جبل بني يزناسن 43
جبل مطغرة 43
جبل ولهاصة 44
جبل أغبال 44
جبل بني ورنيد 44
جبل مغراوة 44
جبل بني بو سعيد 45
جبل ونشريس 45
جبال دولة الجزائر 46

القسم الخامس
مملكة بجاية
ومملكة تونس

مملكة بجاية ومملكة تونس 49
مدينة بجاية الكبيرة 50
قصر جيجل 51
مدينة مسيلة 52
سطيف 52
نكاوس 53
القل 54
سكيكدة 54
مدينة قسنطينة 55
مدينة ميلة 60
مدينة بونة (عنابة) 61
تيفش 62
تبسة 63
أوربس 65
مدينة باجة 66
عين زميت 67
القصبة 67
شيرس 67
بنزرت 68

قرطاج المدينة العظمى 68
مدينة تونس الكبرى 70
بلاط الملك ونظامه وتقاليده وموظفوه 78
نابولي رادس 82
كمزت 82
المرسى 82
أريانة 82
الحمامات 83
أهريقلية 83
سوسة 83
المنستير 84
طبلبة 85
مدينة المهدية 85
صفاقس 87
القيروان، المدينة الكبرى سالفاً 87
مدينة قابس 91
الحامّة 92
قصر المحرس 92
جزيرة جربة 93
مدينة زوارة 96
لبيدة 96
طرابلس القديمة 97
طرابلس الغرب 97
جبال بجاية 101
جبل الاوراس 102
جبال دولة قسنطينة 103

جبال عنابة 104
الجبال المجاورة لتونس 104
جبال بني يفرن ونفوسة 105
جبال غريان 106
جبال بني وليد 107
قصر أحمد 107
سبيخة 107
قصر حسان 107
نون 108
تغزة 108
أُوجلة 109
قرية الغار 109
غَار الغار 110
سرمان 110
زاوية بني يربوع 110
زنزور 110
عمروس 110
تاجورة 110
مسلاتة 111
مسراتة 111
صحراء برقة 112

القسم السادس

نوميديا

نوميديا 115
تشيت 115

ودان 116

إفران 117

أقا 117

درعة 118

سجلماسة 120

الخنك 122

مضغرة 123

الرتب 123

إقليم سجلماسة 125

مدينة سجلماسة 127

قصر السويهلة........................... 128

أم الحدج 128

أم العفن 128

تبلبلت 129

تدغة 129

فركلة 130

تزرين 130

بني ڭومي 130

قصرا مزالق وبوعنان 131

القصير 131

بني بصري 132

وكدة 132

فڭيك 132

تسبت 133

تيڭورارين 133

مزاب 134

تقرت 135
وركْلة 136
إقليم الزاب 138
بسكرة 138
البرج 139
نفطة 139
طولقة 140
دوسن 140
بلاد الجريد 142
توزر 142
مدينة قفصة 143
نفزاوة 145
تاورغة 145
زليطن 146
غَدامس 146
فزان 146

صحارى ليبيا 148
صحراء صنهاجة 148
الصحراء التي يسكنها شعب ونزيگة 150

الصحراء التي يسكنها شعب تارگة 151
الصحراء التي يسكنها شعب لمطة 153
الصحراء التي يسكنها شعب برداوة 154
سرت 155
برداوة 155
الواحات 156

القسم السابع

بلاد السودان

بلاد السودان 159
مملكة ولاتة 161
مملكة غينيا 162
مملكة مالي 164
تنبكتو 165
مدينة كبرة 168
كاغو 169
مملكة ڭوبر 170
أغدس ومملكتها 171
ڭانو 173
كاتسينا ومملكتها 173
زڭزك ومملكتها 174
زنفرى 174
مملكة ونڭرى 174
برنو ومملكته 175
ڭاوڭا ومملكتها 177
النوبة ومملكتها 179

القسم الثامن

مصر

مصر 185
أقسام إقليم مصر 188
أصل المصريين ونسبهم 188

خاصيات مناخ مصر وتغيراته 191
مدينة بوصير 193
الاسكندرية، مدينة مصر الكبرى 193
أبو قير 197
رشيد التي يسميها الايطاليون روزيطو 197
مدينة أنثيوس 198
برنبال 199
مدينة طيبة 199
مدينة فوة 200
جزيرة الذهب 200
المحلة 201
مدينة ديروط 201
محلة قيس 202
مدينة القاهرة العظمى العجيبة 203
الربض المعروف بباب زويلة 207
الربض المعروف بجامع طولون 207
ربض باب اللوق 208
الربض المعروف ببولاق 210
ربض القرافة 210
المدينة القديمة المعروفة بمصر العتيقة 211
عادات سكان القاهرة وأرباضها ولباسهم وممارساتهم 216
السلطان 222
أهم موظفيه وضباطه حسب مراتبهم 222
السلطان 222
الدوادار 226
الأمير الكبير 226

نائب الشام 227
الاستادار 227
أمير آخور 227
أمير ألف 228
أمير مائة 228
خازندار 228
أمير سلاح 229
تختخانة 229
جنود السلطان 230
موظفون ملحقون بالادارة العامة 231
الجيزة 233
المعلقة 233
الخانقاه 234
المعيصرة 234
بني سويف 234
المنية 235
الفيوم 235
منفلوط 236
أسيوط 236
إخميم 237
المنشية 237
جرجا 238
الخيام 239
بربندة 239
قنا 239
إسنا 240

أسوان 241

القسم التاسع
الأنهار والحيوانات والنباتات بإفريقيا

توطئة 244
نهر تنسيفت 245
تساوين 246
واد العبيد 246
أم الربيع 247
أبو رقراق 247
بهت 248
سبو 248
لكوس 249
ملولو 250
ملوية 250
زاء 250
التافنة 250
مينا 251
الشلف 251
الشفة 251
النهر المدعو الواد الكبير 252
السمار 252
يدوغ 252
واد البربر 253
المجردة 253
واد قابس 253

سوس 254
درعة 254
زيز 254
كَير 255
نهر النيل العظيم 255
الحيوانات 257
الفيل 258
الزرافة 258
البعير 259
فرس المغرب 262
الفرس الوحشي 263
اللمت 263
الثور الوحشي 264
الحمار الوحشي 264
بقر جبال إفريقيا 264
الدمان 264
الغنم 265
الأسد 265
النمور 266
الضبع 267
قطُّ الزباد 267
القردة 267
الأرانب 268
الأسماك 269
سمك العنبرة 269
فرس الماء 269

ثور الماء 269

السلحفاة العملاقة 270

التمساح 271

التنين 273

الهيدرة 273

الضب 274

الورل 274

الحرباء 274

الطيور 276

النعامة 276

النسور 277

النسر 277

البازي 277

الخفاش 278

الببغاء 278

الجراد 278

المعادن 280

الملح 280

الكحل 280

الفربيون 281

القطران 281

الموز 281

سنط العنبر 282

الترفاس 282

النخل 282

تين مصر المعروف عندهم بالجميز 283

شجرة الطلح 283
تسرغينت 283
الداد 284
السرمق 284
فهرس موضوعات الجزء الثاني 285
الفهارس العامة 299

الفهارس العامة

- فهرس أعلام الأشخاص والقبائل والأمم والفِرق
- فهرس الأماكن
- فهرس الكتب المذكورة في متن وصف افريقيا
- مصادر الترجمة والتعاليق
- فهرس الخرائط

فهرس
أعلام الأشخاص والقبائل والأمم والفِرق

آدم: (1) 351، (2) 281
الآريون: (1) 68، 69
آل ادريس: (1) 37
آل اسماعيل (عليه السلام): (1) 57
آل بيت محمد (عليه السلام): (1) 322
آل علي: (1) 219
آل فرحون (المستبدون بأسفي): (1) 147
آل المنصور (الموحِّدون): (1) 196
أبَاطِرَة الرّومان: (1) 242
إبراهيم بن علي (المرابطي): (1) 129، 175
إبراهيم (ملك بورنو): (2) 175
أب المؤلف (محمد الوزان): (1) 205
ابن الحاج (الناظر): (1) 227
ابن خلدون (المؤرخ): (1) 266
ابن راشد (أمير شفشاون): (1) 332
ابن الرقيق (المؤرخ): (1) 38، 46، 71
ابن عبد الملك المراكشي: (1) 135
ابن الفارض: (1) 270، 271
ابن القاضي (الأمير): (2) 152
ابن طولون (أحمد): (2) 256
ابن الكلبي (مؤلف كتاب السيرة): (1) 296
ابن المُغيربي الكيميائي: (1) 275
أبو بكر أسكيا (ملك تنبكتو): (2) 160، 164، 165، 171، 173، 174، 175
أبو بكر برگما: (2) 168
أبو بكر بن عبد الحق المريني: (1) 348
أبو بكر بن عثمان (ملك تونس): (2) 100
أبو تاشفين: (2) 17
أبو الحسن بن أبي فارس الحفصي: (2) 38
أبو الحسن المريني: (1) 209، 293، (2) 19، 99، 247
أبو حمو: (2) 9، 10، 36، 39
أبو دبوس (الموحدي): (2) 246
أبو زكريا بن عبد الواحد: (2) 73
أبو زيان محمد: (2) 9، 35
أبو سالم (ملك فاس): (2) 100
أبو سعيد (آخر ملوك بني مرين): (1) 209، 210، 284، 318

أبو سعيد عثمان بن عبد الحق المريني: (1) 346، 348

أبو العباس (ملك تونس): (2) 99

أبو عبد الله السفاح: (1) 219

أبو عبد الله محمد بن الحسن الحفصي: (2) 82

أبو عبد الله المريني: (2) 20

أبو عنان المريني: (1) 225، 226، 239، 282، 350

أبو فارس عبد العزيز الحفصي (عزوز): (2) 8، 38، 49

أبو محمد الحسن اليازوري: (1) 44

أبو مدين (شعيب بن الحسن الغوث): (2) 24

أبو يحيى بن عبد الحق المريني: (1) 348

أبو يحيى الحفصي: (2) 19

أبو يزيد (راكب الحمار): (2) 86

أبو يعقوب يوسف المريني: (2) 17، 18

الأتراك: (1) 70، 283، 285

إثبج (عرب..): (1) 48، 49، 50

الإثيوبيون: (1) 34، 35

أحمد بن موسى الورتاجني (أمير دبدو): (1) 351، 352

أحمد (حادي عشر ملوك بني مرين): (1) 349

أحمد (ملك فاس): (2) 121

أحمر (عرب..): (1) 49، 54

أخو ملك فاس (الورطاسي): (1) 211، 212

إخيم بن مصرائيم بن كوش بن حام: (2) 237

الأدارسة (الملوك): (1) 311

إداوْ عاقّل (قبيلة..): (1) 109

إدريس الأول: (1) 218، 219، 295، 311، (2) 17

إدريس بن ادريس (مؤسس فاس): (1) 220، 295، 306، 322، (2) 16

الأريوسيون (المسيحيون): (1) 68

الأزموريون: (1) 159

الاسبانيون (أو الاسبان): (1) 323، 325، 326، 340، 342، 344

أسجع (عرب..): (1) 49، 52، 54

اسحاق بن إبراهيم (المرابطي): (1) 130

أسد بن الفرات: (2) 90

أسد الدين: (2) 223

أسد روبال: (2) 17

الإسرائيليون: (1) 69

الإسكندر الكبير: (1) 296، (2) 127، 193، 196

إسماعيل بن ابراهيم (عليهما السلام): (1) 57، (2) 262

الأشعري: (1) 273، 274، (2) 220

الأشعرية (أو مذهب الأشعري): (1) 273، 274

الأشوريون: (1) 34، 35، 69

الأطباء ودكاكينهم بفاس: (1) 242، 243

الإغريق: (2) 199

الأغلب بن سالم: (2) 89

الأفارقة (أو الإفريقيون): (1) 27، 34، 35، 36، 38، 39، 41، 54، 64، 67، 69، 70، 71، 79، 80، 82، 83، 85، 87، 90، 91، 95، 98، 108، 113،

117، 118، 120، 122، 123، 147، 152، 176، 184، 185، 199، 201، 204، 205، 213، 216، 217، 235، 242، 253، 295، 301، 302، 307، 308، 309، 311، 318، 325، 328، 341، 343، 349، 350، 354، 362، 364، 367، 370، (2) 62، 68، 96، 97
إفريقش ملك اليمن: (1) 27، 34
الأكراد: (1) 285
الألمانيون: (1) 69
إمام الجامع الكبير بجبل تنزيتة: (1) 174
إمام مدينة آيت عياض: (1) (185)
إمام مدينة بزو: (1) 170
الإمامية (الشيعية): (1) 173
امرأة ابراهيم بن علي المرابطي: (1) 129
امرأة يعقوب المنصور: (1) 131
أمزيغ: (1) 39
أُمُّ أبي سعيد المريني (من بني توزين): (1) 346
الأُمناء العشرة (أصحاب المهدي بن تومرت): (1) 130
الأمويون: (2) 89
أمير أمجّاوْ: (1) 343، 345
أمير أغماي: (1) 137، 138
أمير بادس: (1) 326، 327، 328، 330، 335، 343، 345، 346
أمير تكودَاسْتْ (الشيخ المُوسر): (1) 167، 168
أمير تزوطة: (1) 342
أمير دبدو: (1) 351، 352، 353، 359
أمير سبتة (يوليان): (1) 312، 316
أمير شفشاون: (1) 331
أمير صفرو (الوطاسي): (1) 363
أمير العزمَّة: (1) 329
أمير مكناس (الوطاسي): (1) 215
الأنجليز: (1) 197، 208، 312
أهل أفزة: (1) 183، 184
أهل تادلا: (1) 186
أهل تازا: (1) 355
أهل تامسنا: (1) 195، 199
أهل تكْوداست: (1) 169
أهل تفزة: (1) 178، 183
أهل تونس: (1) 84
أهل جبل زلاغ: (1) 295
أهل دكالة: (1) 163
أهل سوس: (1) 118، 119
أهل الشام: (1) 84
أهل صفرو: (1) 362
أهل غرناطة: (1) 217، 319
أهل فاس: (1) 205، 207، 216، 227، 232، 251، 276، 309، 316، 342، 355
أهل مصر: (1) 84
أهل مكناس: (1) 216
أهل مليلة: (1) 341
أهل هسكورة (أو الهسكوريون): (1) 163، 164
الأُودَاية (عرب..): (1) 49، 53، 54
الأُوربيُّون: (1) 43

أولاد أبي الحسين: (1) 49
أولاد حسين: (1) 49
أولاد علي (من أولاد شيفة): (2) 67
الإيطاليون: (1) 41، 84، 255
البابا: (2) 231
البُجَة: (2) 180، 181، 185، 188، 241
بّدرُونَافارُو: (1) 326
البرابش (عرب..): (1) 49، 53، 54
البرانس: (1) 357
بربر (أو برابرة): (1) 34، 43، 47، 57، 68، 194
بربروس (عروج): (1) 56، (2) 9، 33، 36، 38، 39، 40، 41، 51، 52
البربرية: (1) 39، 40، 419
البرتغاليون: (1) 63، 67، 98، 100، 102، 109، 115، 118، 123، 131، 149، 150، 152، 153، 154، 156، 157، 159، 197، 198، 203، 211، 212، 213، 302، 305، 307، 309، 310، 311، 313، 315، 316، 318، 319، 321، 322، 325، 332، (2) 162
برداوة: (1) 32، 57، (2) 153، 154، 176
البرغواطيون (أو برغواطة): (1) 195، 198، 199، 200، 203، 206، 285
بريطي جياني (يوحنا الراهب): (1) 30
البطالسة: (2) 189
بطليموس: (1) 306، (2) 196
بَطّوية (بالريف): (1) 341
بقُوية (بالريف): (1) 330
البُندقيون (أو البنادقة): (1) 208، (2) 74
بنو الأغلب: (2) 90
بنو أمية: (1) 219
بني توجين (الزناتيون): (2) 45
بنو جابر (عرب..): (1) 177
بنو كُومي: (2) 150
بنو زيان (ملوك تلمسان): (1) 349، (2) 7، 8، 73
بنو صبيح: (2) 119
بنو عامر: (1) 49، 51
بنو عبد الواد: (1) 135، (2) 7
بنو علي: (2) 68
بنو مرين: (2) 8، 24، 73، 121
بنو هلال: (2) 7، 63
بنو واسين: (2) 7
بنو وطاس: (1) 38
بنو يزناسن: (2) 250
بنو يفرن: (2) 7
بني أحمد (بالريف): (1) 337
بني بوشيبت (بالريف): (1) 333
بني توزين (الريف): (1) 345
بني جبارة (بالريف): (1) 332
بني كَرفط (بالريف): (1) 323
بني كُرير (بالريف): (1) 329
بني جنفن (بالريف): (1) 338
بني حسان: (1) 321
بني حسين: (1) 367
بني خالد: (1) 330
بن رزين: (1) 331
بني زرويل: (1) 331
بني سعيد: (1) 344
بني عروس: (1) 321

بني فنزكّار: (1) 320
بني مسكّلدة: (1) 338
بني مراسن: (1) 368
بني منصور: (1) 329، 330
بني وارثين (شرقي فاس): (1) 298
بني وَرْتَاجن: (1) 251
بني ورياكْل: (1) 37، 337
بني وزروال: (1) 336
بني وليد: (1) 333، 334
بني ومود: (1) 339
بني يازغة: (1) 358، 361
بني يدر: (1) 335
بني يرزو: (1) 332
بني يستيتن: (1) 359
بني ورطناج (التسول): (1) 357
بني يوسف: (1) 330
بوبلوس سيبسون: (2) 17
البوني (أحمد بن علي): (1) 272، 273
بوي (إمارة): (1) 68
بيبرس: (2) 206، 225
بييرنافارو (الكونت..): (1) 31، 313، (2) 38، 49، 50، 51، 87، 95، 100، 101
التاجر الفاسي حاكم المدين: (1) 165، 166
التادلي (ابن الزيات): (1) 205
تارڭة: (1) 32، 57
التتر: (1) 285
ثعلبة (عرب): (1) 49، 56، (2) 39
الجبليون: (1) 86، 112، 119، 139، 187، 188، 210، 238، 322، 326، 327، 330، 338، 339، 343، 344، 345، 352، 354، 359، 369، 370
الجزار (الفقيه): (1) 106
الجزوليون: (1) 146
جعفر المتوكل: (2) 256
جعوان: (1) 49، 56
الجغرافيون: (1) 27، 30، 31، 34
الجنوي مصمم أقواس قناة ماء فاس الجديد: (1) 284
الجنويون: (1) 208، 209، 320، (2) 52، 54، 55، 62، 74
ڭومية (قبيلة): (2) 14
جوهر (الصقلي الكاتب): (1) 42، 43، 44، (2) 203، 238
حاجب قرط الكبير: (1) 306
الحاحيون: (1) 97، 109، 116، 118
الحارث بن أسد البغدادي: (1) 267
حارث (عرب): (1) 49، 52
حاسن (عرب): (1) 49
الحاكم الفاطمي: (2) 204
حاميم بن منّ الله (المتنبي): (1) 194، 195
حدج (عرب): (1) 49
حسان (عرب): (1) 49
الحسن البصري: (1) 267
الحسن بن عبد الله: (2) 40
حسن السلطان (بمصر): (2) 207
حسين (أو بنو حسين): (1) 53، 55، 56، 300
الحفصيون (ملوك تونس): (1) 38، 47، (2) 8

حكيم (عرب): (1) 48، 57
الحمّالـون وأمينهم بفاس: (1) 235
حوّاء: (2) 281
خراج (عرب): (1) 49، 56
الخصيب: (2) 235
الخلط (عرب المنتفق): (1) 50، 53، 301
الخلفاء الراشدون: (1) 40
الخلفاء الشيعيون (الفاطميون): (1) 41
خير الدين (بربروس): (2) 39، 41
داوود (عليه السلام): (1) 106
الدباغ: (2) 64
دلاج (عرب): (1) 49، 50
دليم (عرب): (1) 49، 53
دواودة (عرب دواد): (1) 49
دوق الألب: (2) 95
الدوق كارسيادي طليطلة: (2) 95
دوكمباري: (2) 101
دون نوفو: (2) 96
دييكو دي فيرا: (2) 38
ذوي حسان: (1) 49
ذوي حسين: (1) 53، 367
ذوي عبيد الله: (1) 49، 53، 56
ذوي منصور: (1) 53، 54، 55
راشد (مولى إدريس): (1) 220
رئيس جبل آيت واوزكّيت: (1) 170، 171، 172، 173
رئيس جبل تنزيتة: (1) 173، 174
رجراجة (قبيلة): (1) 112
الرحامنة: (1) 49، 54
رحمون بن كيخران (الثائر بآيت عياض): (1) 185
رهونة: (1) 320
روحة (عرب): (1) 49، 53
رودريك: (2) 88
رولاند: (1) 323
الرومان: (1) 69، 70، 188، 196، 201، 203، 207، 242، 274، 295، 296، 297، 299، 306، 308، 311، 312، 314، 316، 332، (2) 7، 13، 25، 32، 36، 42، 50، 52، 53، 54، 55، 60، 61، 63، 64، 65، 66، 67، 82، 83، 84، 85، 87، 91، 92، 96، 104، 138، 139، 140، 142، 155، 189، 189، 191، 198، 199، 201، 236، 239، 240، 255، 268
رياح (عرب): (1) 49، 52، (2) 57
الزّاب: (2) 7
زابي (مدينة رومانية): (2) 52
الزرانكي (قائد من قبل الوطاسيين): (1) 177، 178، 179، 180، 181، 182، 184
زعير (عرب): (1) 177، 300
زكريا بن يحيى: (2) 100
الزناتيون (أو زناتة): (1) 36، 37، 38، 194، 195، 196، 285، 351، 364، 370، (2) 7، 16، 45، 121، 127
زناكة (قبيلة صحراوية): (1) 32، 38، 186، 369
زواغة: (1) 216
زوجه إدريس الأول: (1) 220
زيان: (2) 7
الزيانيون (أو بنو زيان) ـــ ملوك تلمسان: (1) 38

زين العابدين (بن علي): (2) 211
سان أوجيستان: (1) 68، (2) 61
سان جورج: (1) 231، (2) 238
سان مارك الإنجيلي: (2) 196
ساوو (شعب..): (1) 76
سبأ بن هامة بن كوش: (1) 35، 57
السبئون (أي الحميريون): (1) 35، 39، 57
سعيد (أو بنو سعيد) ـ عرب ـ: (1) 48، 50
سعيد (الأمير المريني الثائر): (1) 209، 210، 211، 213، 216، 217، 227، 228، 292، 302
السفاح: (2) 89
سفيان (عرب): (1) 49
السلاجقة: (1) 268
سليم (أو بنو سليم): ـ عرب ـ: (1) 49، 53، (2) 198، 205، 212، 215، 222
سليم التومي: (2) 39
سليمان بن داوود (عليهما السلام): (1) 296
سليمان (بن عبد الله حفيد علي بن أبي طالب): (2) 16
سليمان بن عبد الملك: (2) 89
سليمان (تاسع ملوك الأتراك): (2) 238
سميت: (1) 48، 50
سنان باشا: (2) 101
سني علي (ملك تنبكتو): (2) 160، 162، 164
السهروردي (عبد القادر): (1) 270
السودانيون: (1) 54، 87
سويد (عرب): (1) 49، 52
سيدي الداهي: (2) 77
سيدي سينا: (2) 29
سيفاكس (سوفاك): (2) 17
شاركارلوس الخامس: (2) 9، 23، 36، 40، 96، 101
شاهلشاه (حفيد ملك شاه السلجوقي): (1) 268
الشاوية (رعاة الشاء): (1) 66، 73
شداد بن عاد: (1) 314
الشريف (الإدريسي) القاضي على آخر بني مرين: (1) 312، 313
الشريف (الإدريسي) الصقلي ـ الجغرافي: (1) 188
الشريف (السعدي) الأمير: (1) 103، 104، 108، 109، 111، 112، 114، 118، 119، 120، 121، 146، 151، 157
شعراء الملحون بفاس: (1) 260، 261
الشياظمة: (1) 52
شيخ تازا الصالح الثري: (1) 355
شيخ جبل بويبلان الصالح: (1) 358
شيخ العبرة (محمد الشيخ الوطاسي): (1) 312، 313
شيخ المدينة بدكالة: (1) 153
الشيعيون (أو الشيعة): (1) 68، 218، 306
صالح رايس (باشا الجزائر): (2) 49
صبيح (عرب): (1) 49، 51
صقلية: (1) 66

الصقليون (المسيحيون): (1) 65

صلاح الدين (الأيوبي): (2) 223، 224، 225

الصنهاجيون (أو صنهاجة): (1) 36، 37، 38، 43، 54، 57، 60، (2) 16، 121، 254

الصوفي: (2) 220

الصوفيون (أو الصوفية) بفاس: (1) 267، 268، 269، 270

العياد (أول أمير بالقصير الكبير): (1) 303، 304

طارق (بن زياد): (1) 207، (2) 88

طلبة المدارس بفاس: (1) 227

طولون: (2) 207

طوماسودي مرينو (الجنوي): (1) 209

عامل تادلا (من قبل الوطاسيين): (1) 166

العباس (عم الرسول عليه السلام): (1) 219

العباسيون: (1) 42، (2) 89

عبد الحق (آخر ملوك بني مرين): (1) 312، 318

عبد الحق (أول ملوك بني مرين): (1) 348، 349، 351

عبد الرحمان أمير أسفي: (1) 148

عبد العزيز (بن أبي فارس ملك تلمسان): (2) 49

عبد العزيز (ابن ملك تونس): (2) 57

عبد الله (بن عبد الحق) المريني: (1) 316

عبد الله بن محمد (أخو أبي حمو): (2) 10، 35

عبد الله (أمير تقُّرت): (2) 136

عبد الله (ملك غرناطة): (1) 210

عبد المؤمن (الحفصي): (2) 100

عبد المؤمن (الموحدي): (1) 37، 127، 129، 130، 134، 141، 175، 203، 205، 317، (2) 8، 27، 86

عبد الواحد: (2) 73

العبرانيون: (2) 189

العبيد المسيحيون بفاس: (1) 247، 286

عثمان بن أبي فارس (ملك تلمسان): (1) 8، 38، 49، 57، 67، 94، 138

عثمان (بن عفان): (1) 40، (2) 61، 71، 87، 88، 143

عثمان (عرب): (1) 49

العرب (أو الأعراب): (1) 27، 28، 29، 39، 40، 41، 45، 46، 47، 48، 50، 52، 55، 57، 61، 62، 63، 64، 65، 66، 68، 69، 70، 73، 74، 75، 81، 84، 87، 99، 100، 102، 104، 108، 110، 111، 112، 116، 117، 119، 120، 122، 123، 124، 125، 126، 129، 135، 137، 141، 151، 152، 154، 155، 156، 161، 162، 163، 164، 167، 175، 177، 182، 196، 200، 206، 207، 210، 215، 216، 217، 289، 291، 297، 299، 300، 302، 305، 308، 313، 328، 342، 347، 350، 351، 355، 358، 360، 367، 368، 369، 370

عرب تامسنا: (1) 198، 199

عرب الصحراء: (1) 62

العرب العاربة: (1) 57
العرب المستعجمة (أو المتبربرة): (1) 48، 57، 64
العرب المستعربة: (1) 57
عرب نجد: (1) 57
عرب نوميديا: (1) 62
عروة (عرب): (1) 49، 51
عرّوج انظر بربروس.
عقبة بن نافع: (1) 40، (2) 7، 71، 87، 88، 143
عقبة (عرب): (1) 49، 51
علقمة: (2) 90
العلويون: (1) 219
علي (بن أبي طالب): (1) 219، 310، (2) 212
علي بن راشد (أمير شفشاون): (1) 322
علي بن محمد بن ادريس (الأمير): (1) 311
علي بن وشمين: (1) 148، 149
علي بن يوسف بن تاشفين: (1) 127، 129
علي رئيس أعداء البرتغاليين بأسفي: (1) 155
عمار (بن أبي فارس ملك تلمسان): (2) 49
عمار (دليل الطرق): (2) 155
العمارنة: (1) 49، 52، 54، 55
عمر (بن الخطاب): (2) 169، 211
عمر بن عبد العزيز: (2) 89
عمر (ملك كاوكّا): (2) 175، 178
عمرو بن العاص: (2) 97، 189، 211
عمرو السياف: (1) 107، 108، 123
عمّ المؤلف السفير: (1) 171، 172
عيسى بن سلمان (أبو العيش): (2) 17
الغرناطيون: (1) 165، 217
الغزّ: (1) 285
الغزالي: (1) 268
غلمان حمامات فاس: (1) 229، 230
غمارة (قبائل..): (1) 36، 38، 39، 320
الغوري: (2) 205
غياثة: (1) 356
الفاسيون: (1) 115، 163، 355
فاطمة (بنت الرسول عليه السلام): (1) 219
فرج: (2) 57
الفُرس: (1) 67، 70
فرعون (عزيز مصر): (1) 296، (2) 190
فرنسيسكوخيمينيس (كردينال إسبانيا): (2) 30
فطناسة: (2) 143
الفلسطينيون: (1) 35
الفلمنديون: (1) 208
فيرديناند (الدون..): (1) 31، 84، (2) 38، 39، 49، 95، 100، 134
فيرناندو (ملك إسبانيا): (1) 319، 326، 342، (2) 9، 30
فيستا (إلهة عند الرومان): (1) 67
فيليب دوريا (الجنوي): (2) 99
قائد تازا: (1) 352
قائد تزوطة: (1) 342، 343، 345
قائد القصر الكبير (المجاهد): (1) 305

قائد المدين (الغاصب): (1) 165، 166
القائد نبيل: (2) 57
القائم (الفاطمي): (1) 42، 44
القائم بأمر الله: (2) 238
قاضي قضاة فاس وشيخ الجماعة بها: (1) 353
قاضي القضاة لدى أمير دَبْدُو: (1) 359
قبائل تامسنا: (1) 341
القبط: (1) 189
القديس يوحنا: (1) 258
القراصنة الاسبان: (1) 327
قراصنة صقلية أو رودس: (1) 66
القشتاليون: (1) 213
القصارون وأكواخهم بربض فاس: (1) 179
القضاة بفاس: (1) 249، 250
القطلونيون: (2) 74
القوط: (1) 68، 70، 152، 207، 242، 306، 312، 314، 316، 318، 324، 325، 341، (2) 33، 42، 54، 61، 65، 69، 82، 88، 268
قيصر: (1) 242
كبدانة: (1) 344
كرفة (عرب): (1) 49، 52، 55
الكلدانيون: (1) 69
كوران (شعب..): (1) 76
كنانة (عرب): (1) 49، 53
كوش بن حاج بن نوح: (1) 35
كيغيمو (= رب السماء): (1) 67
اللاتينيون: (1) 28، 29، 30، 36، 57، 80، 85
لُذريق ملك القوط: (1) 316، 317
اللمتونيون (أو لمتونة): (1) 37، 126، 127، 195، 221، 248، 285، 364، 370، (2) 143، 159
لمطة: (1) 32، 57
لواتة: (2) 154
الماجريون: (1) 160
المؤرخون (أو مؤرخونا): (1) 34، 35، 69، 114، 136، 201، 242، 296، 314، 325
مالك (بن أنس): (1) 106، (2) 220
مكّاصة: (1) 337
المحتسب بفاس: (1) 237، 251، 260
محمد (البرتغالي الوطاسي): (1) 112، 217، 312، 313، 315
محمد بن أحمد الورتاجني (أمير دبدو): (1) 352، 353، 354
محمد بن إدريس (باني فاس): (1) 310، 311
محمد بن الحسن (الحفصي): (2) 100
محمد بن سليمان: (2) 17
محمد بن مبارك (شيخ جزولة): (1) 145
محمد السابع (الثابتي): (2) 35
محمد الشيخ (الوطاسي): (1) 160، 161، 162، 352
محمد (عليه السلام): (1) 67، 68، 114، 118، 219، 260، 261، 267، 275، 285، 295، 322
محمد الناصر (بن يعقوب المنصور الموحدي): (1) 134، 135، (2) 72
مختار (عرب): (1) 49، 53
المرابطون: (2) 7
المرجاني التونسي المنجم: (1) 266
مرداس (عرب): (2) 62، 143

مرنيسة: (1) 334
المريدون الأربعون (أشياخ الموحدين): (1) 130
المرينيون (أو بنو مرين): (1) 37، 38، 55، 117، 130، 135، 196، 202، 204، 208، 225، 248، 260، 280، 285، 292، 293، 312، 318، 342، 346، 348، 349، 350، 351، 355، 370
مزغنّة: (2) 37
مسطاسة: (1) 368
مسلم (عرب): (1) 49، 51
المسلمون: (1) 106، 183، 247، 267، 283، 312، 313، 314، 316، 317، 318، 323، 326، 341، 343، 364
المسيح: (1) 258، (2) 88
المسيحيون: (1) 88، 119، 131، 132، 158، 160، 162، 208، 312، 313، 319، 323، 327، 341
مسيسيل (بربر): (2) 17
المشارقة: (1) 283
مصرائيم بن كوش بن حام بن نوح: (1) 35، (2) 188، 189
المصريون: (1) 296
مصمودة: (1) 36، 38
مطغرة (بضاحية تازا): (1) 55، 356، (2) 14
المظفر (ابن المنصور ابن أبي عامر): (2) 16
معاوية: (2) 88
معقل (عرب): (1) 48، 49، 53، 57، (2) 39
المغاربة: (1) 156، 212، 302، 344
مغراوة: (1) 37، 38، (2) 7، 16، 45
مكناسة (فرع من قبيلة زناتة): (1) 37
ملك إسبانيا (أو ملوك..). (1) 212، 284، 319، 322، 323، 326، 341، 342
ملك الأندلس: (1) 329
ملك البرتغال (أو ملوك .): (1) 197، 203، 211، 213، 309، 310، 313، 314، 315، 316
ملك تلمسان: (1) 282، 342، 349، 350
ملك تنبكتو: (1) 171
ملك شاه امبراطور السلاجقة: (1) 268
ملك غرناطة (أو ملوك..): (1) 210، 306، 317، 319، 322
الملك الصوفي (الشاه اسماعيل): (1) 273، 274
ملك فاس: (1) 165، 166، 168، 171، 173، 174، 177، 178، 179، 180، 181، 182، 183، 184، 194، 195، 196، 198، 203، 204، 207، 209، 210، 211، 212، 215، 251، 283، 285، 286، 288، 289، 290، 292، 294، 300، 301، 302، 307، 309، 310، 312، 313، 314، 315، 316، 318، 320، 321، 323، 326، 327، 332، 334، 335، 336، 337، 338، 339، 341، 342، 343، 344، 345، 346، 352، 353، 354، 355، 356، 358، 362، 364، 368

ملك قرطبة: (1) 329
ملك قشتالة: (1) 208
ملك القوط (لذريق): (1) 316
ملك القيروان (أو خليفة..) ـ الفاطمي ـ: (1) 306، 307، 328، 329
ملك مراكش (أو ملوك..): (1) 198، 204، 303، 304، 316، 348
الملوك الأشوريون: (1) 27
المنابهة (عرب): (1) 49، 52، 55، (2) 123، 124
المنتفق (عرب) ـ الخلط ـ: (1) 49، 50
منسا سليمان (ملك تنبكتو): (2) 165
المنصور بن أبي عامر: (1) 80، (2) 16، 17
المنصور (يعقوب، رابع الموحدين): (1) 46، 47، 50، 127، 132، 134، 135، 196، 198، 201، 202، 203، 303، 304، 316، (2) 72، 143، 144، 245
المنظري (قائد تطاوين الأندلسي): (1) 318، 319، 323
المهدي بن تومرت (محمد): (1) 37، 129، 130، 141، (2) 27
المهدي العبيدي ـ الفاطمي ـ: (2) 69، 85، 86، 89
المهدي المنتظر: (1) 114
المهلب: (2) 89
الموحدون: (1) 46، 122، 127، 136، 196، 204، 209، 285، 343، 348
موسى (عليه السلام): (1) 296، (2) 188، 236
موسى بن حمو الورتاجني (أمير دبدو): (1) 351
موسى بن نُصير: (2) 88، 89
موسى (ملك ڭاوڭا): (2) 178
مولاي بوعزة: (1) 204، 205
ناسك أغمات: (1) 136، 137
ناسك جبل سمد: (1)139
الناصر (ابن ملك تونس): (2) 63
نبيل: (2) 57، 58
نزيكة: (1) 32
النسر (أمير هوارة): (2) 63
النصارى: (1) 30، 100، 208، 212، 231، 302، 314، 318، 321، 323، 326، 327، 341، 343
النضر (عرب): (1) 49، 52
نظام الملك (مستشار السلاجقة): (1) 268
النفاليس (الأعيان): (1) 104
نفيسة (السيدة..): (2) 211، 212
النمرود: (1) 296
النوميديون: (1) 32، 36، 40، 47، 62، 81، 89، (2) 115، 117، 140
هارون الرشيد: (1) 218
هبرة (عرب): (1) 49، 51
الهدج (عرب): (1) 56
هرغة: (1) 37
هشام (بن عبد الملك): (2) 89
هلال (عرب) ـ أو بنو هلال ـ: (1) 48، 49، 51، 57
هلال بن ميمون: (2) 99
هلوكي (أو البهلولي) ـ المجاهد ـ: (1) 323

هنتاتة (فرع مصمودة): (1) 38
الهواريون (أو هوارة): (1) 36، 37، 38، 39، 196، (2) 63، 121، 238
هوازن (عرب): (1) 49
الوثنيون: (1) 312، 364
الوكلاء بفاس: (1) 249، 250
الوليد بن عبد الملك: (1) 317، (2) 88، 89
الوندال: (2) 33، 42
ونزكة: (1) 57
يحيى (بن تعفقت): (1) 126، 148، 149، 151
يحيى بن محمد: (2) 35، 45، 100
يزبك: (2) 208
يزيد بن عبد الملك: (2) 89
يزيد بن المهلب: (2) 89
يعقوب بن عبد الحق المريني: (1) 135، 208، 282، 348، 349 (2) 246
يعقوب المنصور، أنظر المنصور.
يغمراسن بن زيان: (2) 7، 8
اليهود: (1) 67، 84، 88، 98، 99، 101، 105، 106، 111، 117، 119، 140، 142، 147، 154، 158، 164، 176، 178، 183، 185، 273، 283، 326، 355
يوحنا (القديس .): (2) 96، 101، 180
يوسف (أبو يعقوب) ــ الموحدي ــ: (1) 134
يوسف بن اسرائيل: (2) 236
يوسف بن تاشفين: (1) 46، 126، 129، 195، 196، 199، 221، 364، (2) 72، 121، 127، 160، 165
يوسف بن عبد المؤمن: (2) 72
يوسف بن يعقوب المنصور: (2) 72
يوسف (ثاني ملوك بني مرين): (1) 292، 342
يوسف الناصر (الموحدي): (1) 323
يوليان أمير سبتة: (1) 316، (2) 88
يونس (عليه السلام): (1) 114

فهرس الأماكن

آسيا: (1) 27، 35، 43، 69، 219، 268، 269، 273، 279، (2) 70، 219، 220، 242، 259، 262
آيت داود: (1) 105، 106، 107، 108
آيت عتاب (مدينة في تادلا): (1) 184
آيت عياض (مدينة في تادلا): (1) 185
آيت واوزڭيت (جبل): (1) 170
أبتون: (2) 190
أبو رقراق (نهر): (1) 194، 195، 201، 203، 207، 301، (2) 247
أبو قير (مدينة): (2) 197
اثيوبيا: (1) 30، 86، 174، (2) 111، 224، 257، 258، 260، 261، 267، 278، 280
أڭدز: (1) 38، 75
أڭدير (ڭسيمة): (1) 118، (2) 254
أڭوز: (1) 100
إخميم: (2) 191، 237، 238
إداوايزڭواغن (قرية): (1) 102، 103
إدَاوْ عاقل (جبل): (1) 109
أدَخْسان (سهل. .): (1) 50، 188، 300، 368، (2) 247
أدماي (جبل): (1) 163
أدندون (مدينة): (1) 199
أذيكيس (مدينة في حاحا): (1) 101، 102
أديمي (جبل): (1) 142، 143
أرباض فاس: (1) 277، 278
أربونة: (2) 61
الأربيوس (بَوَادٍ في ضواحي تونس): (1) 66
أرڭون (إقليم): (1) 134
أرشڭول: (2) 16
الأرض البابوية: (1) 160
أرض السودان (أو بلاد السودان): (1) 28، 29، 30، 32، 33، 34، 39، 58، 60، 62، 72، 77، 81، 82، 83، 84، 85، 89، 119، 120، 146، 159، 169، (2) 157، 159، 181
أرمينيا: (2) 68، 225، 242
أروان (سهل): (1) 60، (2) 149
أريانة (مدينة بتونس): (2) 82
الأزبكية: (2) 208، 210

أزجن (مدينة): (1) 307، 309، 320، 321

أزغار (سهل): (1) 31، 47، 50، 53، 72، 193، 297، 300، 301، 306، (2 248، 249

أزغار إيكّمارن: (1) 365

أزمور (مدينة): (1) 63، 148، 152، 154، 155، 157، 158، 196، (2) 247

الأزهر (جامع): (2) 203

الأزواد (صحراء): (1) 33، 76، (2) 148

أساتذة المدارس بفاس: (1) 227

إسبانيا: (1) 31، 68، 84، 96، 127، 132، 177، 201، 244، 274، 284، 306، 314، 316، 319، 321، 323، (2) 171

أسفي (مدينة): (1) 52، 63، 100، 126، 128، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 154، 155، 160، (2) 245

أسفي (جبل): (1) 128

الإسكندرية: (1) 28، 42، 327، (2) 89، 94، 98، 106، 112، 191، 193، 194، 195، 196، 197، 210

إسنا: (2) 239، 240، 241، 270

أسواق فاس: (1) 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239

أسوان: (2) 241، 242

أسيف انوال: (1) 95، 122، 123، 124، 140

أسيف المال: (1) 126، (2) 245

أسيوط: (2) 236، 265

إشبيلية: (1) 135، (2) 70، 73

اصطلات قصبات مراكش: (1) 133

أصيلا أو (ازيلا): (1) 302، 305، 311، 312، 313، 321

أضرحة السلاطين خارج القاهرة: (2) 212، 213

أضرحة ملوك بني مرين بضاحية فاس: (1) 280

الأطلس (جبال..): (1) 28، 29، 36، 40، 47، 50، 55، 62، 66، 71، 72، 73، 75، 81، 82، 84، 95، 109، 111، 112، 113، 116، 117، 118، 120، 122، 124، 125، 126، 129، 135، 136، 137، 143، 144، 164، 167، 194، 196، 199، 200، 204، 214، 216، 300، 348، 352، 354، 362، 363، 364، 367، (2) 115، 117، 118، 129، 130، 131، 280، 284

أعمدة هرقل: (1) 28، 36، 306، 312، 314، 316

أغدس: (1) 33، (2) 171، 172

أغمات (مدينة): (1) 126، 135، 136، 137

أغمات (نهر): (1) 136، 137

إفران (الأطلس الصغير): (1) 31، (2) 117

افريقيا (القارة): (1)27، 28، 30، 31، 32، 34، 35، 37، 39، 40، 42، 44، 45، 46، 61، 62، 63، 66، 69، 71،

72، 73، 76، 77، 78، 85، 91، 95، 101، 111، 126، 134، 151، 156، 173، 188، 189، 197، 201، 202، 227، 231، 232، 255، 269، 271، 274، 279، 285، 289، 292، 316، 323، 331، (2) 193، 243، 244، 246، 264
أفريقية (تونس): (2) 74
أفزا (مدينة تادلا): (1) 183، 184
أقا: (1) 32، 54، (2) 117، 118، 148
إقليم الحوز (بمملكة فاس): (1) 348، 349
إقليم الزاب: (2) 138
إقليم سجلماسة: (2) 125، 126
إقليم فاس: (1) 207، 337، 338، 362
إقليم كرط: (1) 328، 350، 342، 346
أكلا (مدينة): (1) 308، 309
ألبانيا: (1) 97
ألمانا: (2) 165
ألمانيا: (2) 96
إمبراطورية يعقوب المنصور: (1) 134
أمَجَّاوْ (مدينة): (1) 343
أمرگو (مدينة): (1) 308
أمزميز: (1) 125، 141
أم جنيبة (مدينة): (1) 367، 368
أم الحدج (قصر): (2) 128
أم الربيع (نهر): (1) 147، 154، 155، 157، 160، 176، 183، 186، 193، 194، 195، 199، (2) 247
أم العفن (قصر): (2) 128
أنگاد: (1) 56، 349، (2) 11، 13، 250، 266
أنجلترا: (2) 195
الأندلس: (1) 80، 134، 217، 316، 317، 323، 329، 341، (2) 73، 88
أنفا: (1) 195، 196، 197، 198
أغماي (جبل ومدينة): (1) 122، 137، 138، (2) 245
أهريقليّة: (2) 83
أوجلة: (1) 32، (2) 109، 147، 154، 156
الأوراس: (2) 7، 102، 252
أوروبا: (1) 27، 30، 62، 69، 78، 134، 223، 232، 239، 241، 242، 248، 253، 312، 316، 324، (2) 33، 59، 63، 70، 81، 135، 162، 166، 169، 170، 188، 194، 195، 204، 215، 228، 242، 257، 259، 262، 279
أوربس: (2) 65، 66، 75، 253
أورطي (في ايطاليا): (1) 104
أوضور (نهر): (2) 248
أومبري: (1) 136
الاير (صحراء): (2) 150، 151، 152
إيسلي (قصر): (2) 12
إيطاليا: (1) 58، 68، 70، 97، 104، 110، 116، 122، 128، 160، 177، 187، 189، 202، 223، 239، 242، 251، 253، 258، 266، 276، 279، 317، 323، 333، (2) 59، 171، 205، 242، 247، 262
إيغيدي: (2) 151
إيغيلينغيل (مدينة في حاحا): (1) 108، 109

إيكيدي: (1) 54
إيلالن (جبل): (1) 121
إيمجياجن (حصن): (1) 123
إيناون (نهر): (1) 207
باب زويلة (بالقاهرة): (2) 204، 205، 207، 215
باب السويقة (بتونس): (2) 74
باب الفتوح (بالقاهرة): (2) 204
بابل: (2) 242
باب اللوق: (2) 207
باب المنارة (بتونس): (2) 74
باب النصر (بالقاهرة): (2) 204
باجة: (2) 66، 104، 253
بادس (مدينة) ــ أوفيليس دولاكوميرا ــ: (1) 325، 326، 327، 328، 330، 343
الباردو: (2) 77
بسكرة: (1) 32، (2) 58، 138، 139، 142
البصرة (بالعراق): (1) 310
البصرة (بالمغرب): (1) 310، 311
البطالسة أو (المطالسة): (1) 347
البطحاء: (2) 27، 251
بعلبك: (2) 205
بغداد: (1) 42، 43، 44، 69، (2) 89، 224، 256
بلاد الإغريق: (1) 35
بلاد البربر: (1) 28، 30، 34، 35، 41، 42، 43، 44، 46، 50، 51، 65، 67، 68، 70، 72، 77، 81، 82، 83، 85، 86، 87، 280، 291، 316
بلاد الجريد: (1) 29، 32، 66، (2) 142
بلاد سبأ: (1) 35
بلاد السودان: انظر أرض السودان.
بلاد العرب: (1) 310
بلاد فارس: (1) 86
بلاد النصارى: (1) 326
بلنسية (مملكة): (1) 135
البندقية: (1) 252، 273، 327، 342، (2) 9، 20، 31، 195، 196، 205، 215
بنزرت: (2) 68
بني بازيل (مدينة): (1) 217
بني بصري (قصور): (2) 132
بني تودة (مدينة): (1) 307
بني ڭومي (جبال وقصور): (1) 32، (2) 130، 255
بني سويف (مدينة): (2) 234
بني ماجر (جبال): (1) 150
بنيونس (بظاهر سبتة): (1) 317
البهاليل (مدينة): (1) 363
بهت (نهر): (1) 300، (2) 248
بورنو: (1) 33، 39، (2) 154، 172، 175، 176، 177
بوريش (ممر بالأطلس): (1) 125
بوصير (مدينة): (2) 193
بولعوان: (1) 154، 155، 156
بولونية (بإيطاليا): (1) 231
بيت المقدس: (2) 223
بيتو: (1) 34
بيتيك (بلاد في اسبانيا): (1) 274
بيروت: (1) 327

بيشيلڭة: (2) 52
البيمارستانات بفاس: (1) 227، 228، 229
البينيون (برج): (2) 38
تاڭتسة: (1) 105
تاجورة: (2) 110، 111
تادلا: (1) 30، 50، 72، 156، 160، 163، 175، 176، 183، 184، 186، 187، 199، 216، 268، (2) 246، 247
تازا: (1) 349، 351، 352، 354، 355، 356، 357، 358، (2) 249، 250
تاغية: (1) 205
المتافنة (نهر): (2) 12، 250
تامسنا: (1) 31، 37، 66، 72، 73، 193، 194، 195، 196، 198، 199، 205، 206، 313، 341، 368، (2) 247، 266
تاورغة: (1) 32، (2) 145
تبحريت (مدينة): (1) 14
تبسة: (2) 63، 64، 253
تبعصامت: (2) 125
تبلبلة (أو تبلبلت): (1) 32، 54، (2) 129، 150
تڭاووست (مدينة): (1) 54، 120
تڭُّرت: (2) 153
تڭوداست (مدينة وجبل في هكسورة): (1) 166، 167، 168، 169، 175
تڭوليت: (1) 100
تِڭّيت (مدينة): (1) 199، 200
تدغة (سهل): (1) 32، 54، 188، (2) 129
تدنست: (1) 98، 99، 100
ترڭا: (1) 154، 155
ترسيس (أو ترشيش) ــ طرطوس ــ: (2) 70
ترغة (مدينة): (1) 324، 325، 329، 331
تركيا: (1) 86، 97، 273، (2) 83، 87، 111
ترودانت: (1) 117، 118، 119
تزرغة (بلدة): (1) 367
تزرين: (2) 130
تزوطة (بلدة): (1) 342، 343
تسابت: (1) 32
تساوت (نهر): (1) 143
تساوين (جبلان ونهران): (1) 175، (2) 246
تسبت: (2) 133
تسڭدلت: (1) 104، 105، 107
تسلة (مدينة): (2) 25
تشرافت (مدينة): (1) 126
تشيت: (1) 54، (2) 115
تطاوين: (1) 318، 319، 322، 323
تغات (جبل): (1) 299
تغزّة: (2) 108، 109، 148، 150، 166
تغسّة (مدينة): (1) 327، 328
تفتنة (مدينة وميناء في حاحا): (1) 108، 109، 110
تفراطة: (1) 349، (2) 250
تفرّة (حاضرة تادلا): (1) 176، 177، 178، 179، 180، 183
تفسرة (مدينة): (2) 24
تفلفلت (مدينة): (1) 213

تفيلالت: (2) 125
تقدمت: (2) 40، 251
تقرت: (2) 135، 136
تكانوت: (1) 54
تكديت: (1) 56
تكمريت: (2) 16
تلال هسرة: (1) 160
تلكة: (1) 32
تلمسان: (1) 31، 36، 38، 51، 56، 63، 75، 135، 208، 282، 293، 349، (2) 17، 132، 150، 250، 251، 266
تمراكشت: (1) 154
تمزيزدڭت (قصر): (2) 11
تمسنت: (2) 124
تمندفوست: (2) 42، 251
تميام: (1) 34
تنبكتو: (1) 29، 30، 33، 38، 39، 53، 75، 76، 120، 171، 172، (2) 108، 109، 117، 119، 148، 149، 150، 152، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 169
تنجيوت: (2) 125
تنزيتة (جبل): (1) 170، 173
تنس: (1) 31، 51، 52، (2) 10، 16، 35، 41، 251
تنسيفت (نهر): (1) 95، 112، 122، 127، 136، 147، 163، (2) 245
تنصُر (مدينة): (1) 308
تنيس: (2) 186، 188، 193
توات: (1) 32، (2) 151
توريرت: (1) 349، 350
توزر: (1) 32، (2) 142، 143
توكورت: (1) 32
تومڭلاست (قصور): (1) 125، 126
تونس: (1) 31، 32، 38-40، 47، 48، 52، 63، 66، 68، 78، 84، 135، 196، 266 — 272، 313، 327، (2) 62، 70، 71، 72، 73، 74، 75، 76، 77، 78، 79، 81، 82، 84، 86، 91، 94، 105، 106، 111، 115، 136، 235، 253، 265، 266
تونيوتوم: (2) 70
تيباسانوميدروم. (2) 62
تيڭريكرة (نهر): (1) 348، 368
تيڭورارين: (1) 32، 51، (2) 133، 134، 151
تيدسي (في تخوم سجلماسة ودرعة): (1) 188
تيدسي (في سوس): (1) 119
تيرست: (2) 250
تيشيت: (1) 31
تيط (مدينة في دكالة): (1) 152
تيفش (مدينة): (2) 62، 63
تيفولي (مدينة بإيطاليا): (1) 124
تينمل (جبل ومدينة): (1) 141
تينيزّا (مدينة): (1) 123
تيّوت: (1) 103، 115، 116، 117
ڭاغو: (2) 160، 162، 164، 169، 170
جامع الأندلس (بفاس): (1) 246
جامع الحاكم (بالقاهرة): (2) 204
جامع الحمام (مدينة): (1) 216
جامع الزيتونة: (2) 76

جامع شالة: (1) 203
جامع صفرو: (1) 162، 163
جامع طولون: (2) 207
جامع عبد المؤمن (بقصبة مراكش): (1) 127، 131
جامع علي بن يوسف (بمراكش): 127 (1)، 128
جامع عمرو: (2) 211
جامع فاس الجديد: (1) 282
جامع القرويين (أو الجامع الكبير): (1) 224، 225، 231، 232، 239، 240، 255، 275، 281، 292
الجامع الكبير بتازا: (1) 354
جامع مهدية: (1) : 364
گانو: (2) 153، 170، 172، 173
جاوة: (2) 206
گاوگا (بحيرة وصحراء): (1) 28
گاوگا انظر مملكة گاوگا
گاوگاو: (1) 39، (2) 156، 160، 235
گاوو: (1) 33، 39
الجبال (إقليم بتلمسان): (1) 31، (2) 43
جبال بجاية: (2) 101، 102
جبال بطوية: (1) 341، 346
جبال بني وليد: (2) 107
جبال بني يفرن ونفوسة: (2) 105
جبال تادلا: (1) 156، 186
جبال الحوز: (1) 340
جبال دبدو: (1) 358
جبال دولة الجزائر: (2) 46
جبال دولة قسنطينة: (2) 103، 104
جبال زواوة: (2) 102
جبال زيز: (1) 368، 369
جبال عنابة: (2) 104
جبال غريان: (2) 106
جبال غمارة: (1) 301، 307، 308، 314، 329
الجبال المحاورة لتونس: (2) 104، 105
جبال موريطانيا (بالريف): (1) 36
جبال الهبط: (1) 320
جبل آيشتوم (بالريف): (1) 334، 335
الجبل الأخضر: (1) 160، 161
جبل أزگلن: (1) 362
جبل أزكنگن (بالريف): (1) 345
جبل أغبال: (2) 44
جبل أنجرة: (1) 322
جبل البرانس: (1) 357
جبل بقوية: (1) 330
جبل بني أحمد: (1) 337، 338
جبل بني بوسعيد: (2) 45
جبل بني بوشيبت: (1) 333
جبل بني توزين: (1) 345
جبل بني جبارة: (1) 332
جبل بني گرفط: (1) 323
جبل بني گرير (بالريف): (1) 329
جبل بني جنفن: (1) 338
جبل بني حسان: (1) 321
جبل بني خالد: (1) 330
جبل بني رزين: (1) 331
جبل بني زرويل: (1) 331
جبل بني سعيد: (1) 344، 345
جبل بني عروس: (1) 321
جبل بني فنزگار: (1) 320، 321
جبل بني ماجر: (1) 159

جبل بني مراسن: (1) 168

جبل بني مسڭدلة: (1) 338، 339

جبل بني منصور: (1) 329، 330

جبل بني ورطناج (التسول): (1) 357

جبل بني ورنيد: (2) 44

جبل بني ورياڭل: (1) 337

جبل بني وزروال: (1) 336

جبل بني وليد: (1) 333

جبل بني ومود: (1) 339

جبل بني يازغة: (1) 358، 361

جبل بني يدّر: (1) 335

جبل بني يرزو: (1) 332

جبل بني يزناس: (2) 43

جبل بني يستيتن: (1) 359

جبل بني يوسف: (1) 330، 331

جبل تساون: (1) 186

جبل تيزرن: (1) 332

جبل حبيب: (1) 321

جبل درن (الأطلس الكبير): (1) 130

جبل رهونة: (1) 320

جبل سليلڭو (سليلبو): (1) 360، 362، (2) 20

جبل صفرو: (1) 362

جبل طارق: (1) 71، 72، 101

جبل غياثة: (1) 356

جبل القمر: (2) 256

جبل كبدانة: (1) 344

جبل لوكاي: (1) 335

جبل مائة بير: (1) 365

جبل مڭاصة: (1) 357

جبل مسطاسة: (1) 368

جبل مطغرة (بضاحية تازا): (1) 356، (2) 43

جبل مغران: (1) 186، 187، 188

جبل مغراوة: (2) 44

جبل مرنيسة: (1) 334

جبل وادراس: (1) 322

جبل وبلان (بويبلان): (1) 358

جبل وردان: (1) 346

جبل وهاصة: (2) 44

جبل ومر الغربان (خنك الغربان): (1) 367

جبل ونشريس، أنظر ونشريس.

جبهة (مدينة): (1) 328

ڭڭدم: (2) 150

جدة: (2) 181، 242

ڭدميوة (بالأطلس): (1) 123، 141، 142

جربة (جزيرة): (2) 25، 32، 62، 93، 94، 95، 96، 105، 142، 195

جرجا: (2) 238

ڭرسلوين (مدينة): (1) 55، 370، (2) 250، 254

ڭرسيف (قرب ملوية): (1) 350، 351

ڭريڭرة (جبل): (1) 300

ڭريڭرة (نهر رافد لبهت): (1) 300

الجريد. انظر بلاد الجريد

الجزائر: (1) 31، 51، 56، (2) 37، 135، 251

جزولة: (1) 30، 36، 121، 125، 136، 143، 144، (2) 115، 116

الجزيرة: (2) 233

جزيرة بادس (أو حجرة بادس): (1) 326، 327

جزيرة جربة: انظر جربة
جزيرة طريف: (1) 134
الجزيرة العربية: (1) 40، 42، 45، 46، 86، 268، 273، (2) 220، 234، 262، 279
جزيرة (في مصب اللكوس): (1) 309، 310
جزيرة المقياس: (2) 213
ڭمزت (مدينة): (2) 82
الجمعة (مدينة في أزغار): (1) 301
الجمعة (مدينة في ناحية مراكش): (1) 122، 168، 169
الجمعة الجديدة: (1) 124، 141
جنة آدم: (1) 351
جنوة: (1) 209، 320، (2) 9، 20، 54، 195
جني (مملكة..): (1) 30، 33، 39
جوامع فاس السبعمائة: (1) 223
ڭوبر: (2) 150
جيجل: (2) 39، 51، 103، 252
ڭير: (2) 150، 255
الجيزة: (2) 233
جيّان: (1) 135
حاحا: (1) 30، 36، 52، 95، 96، 100، 101، 103، 107، 109، 111، 112، 113، 116، 122، 138، 144، 145، 151، 188، (2) 115، 254
الحامة: (1) 132، (2) 92، 115
حامة خولان: (1) 293
الحجر الأحمر (مدينة): (1) 296، 297
حدائق فاس وبساتينها: (1) 281
الحديد (جبل): (1) 112
حصن أسفي: (1) 150
حصن تطاوين: (1) 319
حصن معمورة: (1) 211، 212
حصن مليلة: (1) 341
الحُمَر (مدينة): (1) 311
الحمامات بفاس: (1) 227، 229، 230، 231
الحمامات (مدينة بتونس): (2) 83
الحوز (بمملكة فاس): (1) 31، 193، 348، 349، (2) 250
خان الخليلي: (2) 205
الخانقاة (مدينة): (2) 234
خراسان: (1) 270-273، (2) 225
خميس مطغرة (مدينة): (1) 216
الخنك: (2) 120، 122، 123، 254
خوارزم: (2) 224
خولان (قصر على نهر سبو): (1) 293
الخيام (مدينة): (2) 239
دادس (جبل): (1) 53، 173، 186، 187، 188، 189، 368
دار السكة بفاس الجديد: (1) 283
دار صناعة السفن بالقصر الصغير: (1) 322
دار صناعة السفن في بادس: (1) 326
دار الضيافة بمدينة هسكورة: (1) 165
دار القضايا (بمراكش): (1) 132
دانكلة: (1) 34
دانية: (1) 135
داومة: (1) 134
دبدو: (1) 351، 352، 353، 354، 359، (2) 250

درعة: (1) 32، 53، 54، 171، 188، (2) 109، 118، 120، 148، 254
درنة (نهر): (1) 183
دكاكين العدول بفاس الثمانون: (1) 233
دكاكين الكتبيين بفاس: (1) 233
دكاكين الكتبيين بمراكش: (1) 128
دكالة: (1) 30، 37، 47، 50، 52، 63، 112، 147، 151، 152، 153، 154، 155، 157، 160، 162، 163، 164، 168، (2) 245، 247
دلس: (1) 56، (2) 42
دمشق: (1) 317، (2) 88، 89
دملقة: (2) 179، 180، 181
دمنسرة (جبل): (1) 111
دمنهور: (2) 193
دمياط: (2) 179، 186، 188، 210، 282
دنقلة: (2) 257
دور الناسخين بفاس: (1) 246، 247
دوسن: (1) 32، 140
ديروط (مدينة): (2) 201
رادس: (2) 82
راس بونة: (2) 82
الرباط: (1) 197، 198، 199، 201، 202، 203، 207، (2) 247
ربض باب زويلة: (2) 207
ربض باب اللوق: (2) 208
ربض بولاق: (2) 210
ربض جامع طولون: (2) 207
ربض القرافة: (2) 210
ربض المجذومين بفاس: (1) 178
الرتب: (1) 55، (2) 123، 254
رشيد (أو روزيطو): (2) 186، 188، 191، 197، 198، 200
رقادة: (2) 90
رودس: (1) 66، (2) 101
روما: (1) 30، 71، 124، 127، 202، 206، 231، 238، 244، 258، 273، (2) 14، 58، 63، 68، 69، 143، 191، 195، 285
الريف (شمال المغرب): (1) 31، 36، 78، 193، 324، 325، 328، 340، 346
الريف (بمصر): (2) 188، 232
زا. انظر واد زا.
الزاب: (1) 31، 32، 306، (2) 138، 252، 253
الزاوية (بلدة بإقليم فاس): (1) 292، 293
زاوية بني يربوع: (2) 110
زاوية شالة: (1) 203
زبيد: (2) 181
زگزك: (1) 33، (2) 173، 174
زرفة (مدينة): (1) 205، 206
زرهون (جبل): (1) 220، 294، 295، 296، 301
زغوان: (2) 69، 104، 105
زلاغ (جبل): (1) 293، 294، 301
زليطن: (2) 146
زندل (جبل): (2) 15
زنزور (قرية): (2) 110
زنفرة: (1) 33
زوارة: (1) 96

أرض بضاحية فاس): (1) 181
جبال ومدينة): (2) 96، 102
ن: (1) 368، 370، (2) 254
(2) 175
فلاة): (1) 30
(سهل). (1) 294، 299، 300
او سيفيطاس أو سوبتة): (1) 201،
314، 316، 317، 318، 319،
(2) 88، 99
(2) 207، 210، 238، 293، 301،
361، (2) 248، 249
: (1) 154
(قصر): (2) 107
(قرية): (2) 110
سة: (1) 32، 52، 54، 55، 188،
355، 368، 369، (2) 86،
127، 128، 129، 130، 131،
148، 150، 255، 282
فاس: (1) 249
(جبل بتادلا): (1) 140
: (2) 52، 102
ة (جبل): (1) 140
ة: (2) 54
(1) 51، 159، 197، 207، 208،
210، 214، (2) 247، 248، 282
(نهر): (2) 20
(نهر): (2) 252
جبل): (1) 138، 141
: (2) 193
: (1) 270
المرجة (سهل): (1) 364، 365

سهل مكناس: (1) 214
السواكن: (2) 180، 181، 241
السودان: (2) 111، 116، 126، 129،
130، 133، 135، 136، 139، 146،
148، 153، 236، 258، 280، 283
سوريا. (1) 42، 43
سوس (إقليم): (1) 30، 36، 54، 103،
110، 111، 112، 115، 117، 119،
120، 121، 151، (2) 115، 148،
254
سوس ايلذا (جبل)· (1) 144
سوس (نهر): (1) 113، 114، 118-115،
119، 120، (2) 254
سوسة (مدينة): (2) 83، 84
سوفعمار (نهر): (2) 55
سوق الاثنين بمكناس: (1) 215
سوق التجار بفاس: (1) 240، 241
سو العبيد السود بفاس: (1) 281
سوق مدينة برو: (1) 170
سونغاي: (1) 39
سيتيفيس: (2) 52
سيكّة: (2) 16
سيدي بلعباس (مدينة): (2) 25
سيناء: (2) 212، 234
شاطبة: (2) 39
شالة: (1) 203، 204
الشام: (1) 84، 252، 273، (2) 68،
188، 220، 221، 223، 225، 227،
230، 234، 262
شرشال (مدينة): (2) 34
الشرق: (1) 42، 285

الشفة (نهر): (2) 251
شفشاون (جبل): (1) 331
شفشاون (مدينة): (1) 322
الشلف (نهر): (2) 32، 251
الشواطىء البرتغالية: (1) 197
شيرس (قصر): (2) 67
شيشاوة (جبل ونهر): (1) 111، 122، 138، 140
الصحراء: (1) 29، 34، 40، 42، 46، 47، 50، 51، 53، 62، 63، 65، 113، 127، 167، 169، 187، 200، 300، 349، 350، 351، 355، 360، 369
صحراء أزواد: انظر أزواد.
صحراء أنڭاد: انظر أنڭاد
صحراء برداوة: (2) 154
صحراء برقة: انظر برقة
صحراء تارڭة: (2) 151
صحراء تفراطة: انظر تفراطة
صحراء تيڭورارين: انظر تيڭورارين
صحراء الجزيرة العربية: انظر الجزيرة العربية
صحراء صنهاجة: (2) 148
صحراء طرابلس: (1) 50
صحراء الظهرة: (1) 55، 56، 349، 350
صحراء فڭيك: (1) 55
صحراء كرط: (1) 52، 344، 345، 346، 347، 354
صحراء لمطة: (2) 153
صحراء ليبيا: (1) 54، 56، 72، 75، 81، 347
صحراء منطقة الحوز: (1) 346، 347
صحراء نوميديا: (1) 37، 340، 347
صحراء ونزيڭة: (2) 150
الصعيد (بمصر): (2) 188، 232
صفاقس: (2) 87، 105
صفرو: (1) 362، 363، 364
صقلية: (1) 40، 66، 68، 244، (2)84، 90، 95، 96، 98، 195
صومعة حسان: (1) 202
صومعة (الكتبية): (1) 127، 128، 202
صومعة مسجد النخيلة: (1) 199
ضريح عمرو السياف: (1) 108
ضريح مولاي بوعزة: (1) 205
طُبُلبة: (2) 85
طرابلس الغرب: (1) 31، 46، 50، 68، 134، (2) 69، 73، 95، 97، 98، 99، 100، 101، 106، 107، 110، 111
طرابلس القديمة: (2) 97
طليطلة: (2) 86، 89
طنجة (أو طنجيرة): (1) 302، 313، 314، 315، 316، 319، 321
الطواحين (خارج مكناس): (1) 216
طواحين فاس الأربعمائة: (1) 233
طوريس (مدينة بفارس): (1) 243
طولقة (مدينة): (2) 140
طيبة (بمصر): (2) 199
العبّاد (مدينة): (2) 24
عبيدة (مدينة بالأندلس): (1) 135
العبيد: انظر واد العبيد
العرائش: (1) 302، 311، 312، (2) 249

عمروس (مدشر): (2) 110
عنابة (أو بونة): (2) 61، 62، 75، 103، 104، 252، 253، 266
عين الأصنام (مدينة): (1) 364
عين الحلوف (مدينة): (1) 200، 201
عين زميت (مدينة): (2) 67
العين الصفراء: (2) 32
عيون فاس الستمائة: (1) 247
غابة معمورة: (1) 209، 210
غار كُسيمة: (2) 117
غار سلوان: (2) 121
غار الغار: (2) 110
غار الملح: (2) 253
غجدامة (جبل): (1) 175، (2) 246
غدامس: (1) 32، (2) 146، 153، 154
غرناطة: (1) 91، 134، 201، 217، 306، 317، 318، 319، 322، 323
غريان: (1) 32
غساسة (مدينة): (1) 342، 343، 344، 345، 354، (2) 250
غمارة: (1) 301، 307، 308، 314، 329، (2) 248، 249، 268
الغنج: (2) 224
غيليزان: (2) 28
غينيا: (2) 162، 164، 168
فاكّا: (2) 66
فارس (بلاد..): (1) 243، 273، (2) 167، 242
فاس: (1) 31، 37، 47، 50، 51، 52، 53، 55، 63، 73، 75، 76، 112، 115، 116، 117، 124، 130، 135، 137، 138، 140، 143، 151، 152، 153، 155، 156، 157، 159، 160، 162، 165، 166، 167، 168، 169، 173، 174، 177، 179، 180، 181، 182، 183، 184، 188، 191، 193، 194، 195، 197، 199، 207، 208، 209، 210، 211، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 223، 224، 225، 227، 228، 229، 231، 232، 233، 235، 236، 237، 238، 243، 246، 247، 248، 249، 250، 251، 258، 259، 260، 261، 262، 266، 267، 270، 274، 276، 277، 278، 279، 280، 281، 283، 288، 289، 291، 292، 293، 294، 295، 297، 298، 299، 300، 301، 302، 306، 307، 308، 309، 312، 313، 314، 318، 322، 323، 324، 327، 330، 332، 333، 334، 335، 336، 339، 340، 344، 348، 349، 352، 353، 355، 357، 361، 362، 363، 364، 365، 367، 368، (2) 68، 119، 131، 132، 242، 247، 248، 249، 250، 266، 280، 282
فاس الجديد: (1) 221، 248، 261، 277، 281، 282، 283، 284، 285، 313
فركلة: (1) 32، 53، 187، (2) 130
فبريانو (بإيطاليا): (1) 189
فكيك: (1) 32، 55، (2) 132

فزان . (1) 32، (2) 146، 147، 154
الفسطاط: (2) 189
فلاندرا: (2) 195
فلسطين: (1) 35
فلرنس: (2) 144
فنادق فاس: (1) 231، 232
فنزارة (مدينة): (1) 209، 210
فوة (مدينة): (2) 200
الفيوم: (2) 191، 193، 235
قابس: (1) 32، (2) 69، 91، 92، 115، 253
قادس (شبه جزيرة): (1) 197
قاعة جامع شالة (مدفن المرينيين): (1) 203
القالة: (2) 103، 252
القاهرة: (1) 33، 43، 75، 77 268، 272، (2) 147، 178، 179، 180، 186، 188، 190، 192، 201، 202، 203، 204، 206، 208، 211، 212، 214، 217، 223، 225، 232، 234، 236، 238، 239، 242، 256، 261، 265، 270، 271، 272
قبر يوسف (عليه السلام): (2) 190
قرطاج (بتونس): (1) 27، 40، 68، (2) 68، 69، 70، 71، 82، 104، 105
قرطاجنة (مدينة بالأندلس): (1) 135
قرطبة: (1) 80، 135، 306، 312، 329
قرعان: (2) 179، 180
قرية الغار: (2) 109
القسطنطينية: (1) 166، 213، (2) 189، 242
قسنطينة: (1) 31، 52، 66، (2) 55، 60، 99، 102، 103، 104، 135، 136، 252، 266، 267
قشتالة: (1) 134، 208، (2) 88
القصبة (مدينة بالجزائر): (2) 67
قصبة بادس: (1) 326
قصبة تازا: (1) 355
قصبة الرباط: (1) 201، 202
قصبة فاس (المرابطية): (1) 240، 248، 249، 282، 294
قصبة العرائش: (1) 302
قصبة مراكش: (1) 127، 130، 131، 132
قصر أحمد: (2) 107
قصرا مزالق وبوعنان: (2) 131
قصر بلاحيا: (1) 297
قصر حسان: (2) 107
قصر خزانة الكتب بقصبة مراكش: (1) 133، 134
قصر زكري: (2) 129
قصر سفيلة: (2) 255
قصر السويهلة: (2) 128
قصر شالة: (1) 203
قصر شرايعية: (2) 129
القصر الصغير: (1) 316، 317، 322
قصر العباد: (1) 292
قصر العقاب (في قطلونيا): (1) 323
قصر فرعون (مدينة): (1) 296
القصر الكبير: (1) 303، 310، 319، 321، (2) 249
قصر الكردينال سان جورج في روما: (1) 231

قصر المأمون: (2) 126، 128
قصر المجرس: (2) 92، 93
قصر مخلوف: (2) 129
القصر الملكي بفاس: (1) 248
قصر النصر (بقصبة مراكش): (1) 132
قصر هلال: (2) 123
قصر جبل تنزيتة: (1) 173
القصيّر: (2) 131، 240
قطلونيا: (1) 323، (2) 30
قفصة: (1) 32، (2) 143، 144، 145
قلعة هوارة: (2) 26
القل (مدينة): (2) 54
قليعة المريدين: (1) 107، 108
قِنا: (2) 239، 240، 242، 271، 273
القناة الكبرى: (2) 215
قنط (مدينة بدكالة): (1) 152
القيروان: (1) 40، 41، 46، 306، 307، 309، (2) 71، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 105، 238
قيصرية (مدينة): (1) 36، 40، 50، 68، 78، (2) 7
قيصرية فاس: (1) 342
كاتسينا: (2) 173
كاسنا: (1) 39
الكافة: (2) 222
كانو: (1) 33، 39
كانون (سيدي..): ـ في أمزميز ـ: (1) 125
كبرة (مدينة): (2) 168، 169
كراسي العلماء بالقرويين: (1) 224
كرط: (1) 31، 52، 55، 193، 328، 340، 342، 343، 344، 345، 346، (2) 250
كرطكّسيمة: (2) 254
كرهان: (1) 34
كلاتسينة: (1) 33
كهف النار (أو فم جهنم) ـ بالريف ـ: (1) 337
كوبر: (1) 33-39
الكوفة: (2) 211
كونتي أسيز (بإيطاليا): (1) 189
كير (نهر صغير): (1) 198
لاريس (لاريبوس): (2) 65
لبيدة (مدينة): (2) 96
لشبونة: (1) 150
لقنت (مدينة): (1) 135
لكوس (نهر): (1) 302، 304، 309، (2) 249
لومباردي (سهل بإيطاليا): (1) 122
ليبتيس ماگْنا: (2) 96
ليبيا: (1) 28، 29، 31، 50، 52، 61، 67، 72، 75، 76، 77، 81، 82، 84، 87، 348، (2) 108، 109، 117، 118، 121، 139، 147، 155، 156، 160، 171، 185، 193، 259، 263، 264، 265، 270، 273، 279، 283
مائة بير (مدينة بدكالة): (1) 153، 154
مازونة: (2) 36
ماسة: (1) 28، 53، 110، 113، 114، 120، 134، (2) 127
ماطر (سهل): (2) 68
مالطة: (2) 98، 101
مالقة: (1) 329، (2) 64

مالي (مملكة .): (1) 30، 38، 39، (2) 163، 164، 168
المتيجة: (2) 37، 39، 251
مجردة: (2) 67، 253
المحلة (مدينة): (2) 201
محلة قيس: (2) 202
مدارس الأطفال بفاس: (1) 261، 262
مدارس تازا الثلاث: (1) 354
مدارس فاس الإحدى عشرة: (1) 225، 226، 227
مدارس مكناس الثلاث: (1) 215
مدرة: (1) 34
مدرسة أبناء الملك بقصبة مراكش: (1) 133
مدرسة الإسبانيين (في بولونية): (1) 231
المدرسة البوعنانية بفاس: (1) 225، 226، 227، 239، 266، 282
مدرسة جبل بني يرزو: (1) 332
مدرسة قصبة مراكش: (1) 131، 132
المدرسة المجاورة لمنزل المؤلف بفاس: (1) 137
المدية: (2) 41
المدين (بهسكورة): (1) 165، 166
المدينة البيضاء (فاس الجديدة): (1) 282
المدينة (حاضرة دكالة): (1) 152، 153، 154، 157، 162، 164
المدينة (حاضرة هسكورة): (1) 164، 165
مدينة الضفة الشرقية (فاس القرويين): (1) 220، 221، 245
مدينة الضفة الغربية (فاس الأندلس): (1) 220، 221، 245
المدينة المنورة: (1) 219، (2) 220، 240
مراكش: (1) 30، 37، 40، 46، 63، 72، 93، 95، 99، 102، 111، 112، 115، 122، 124، 125، 126، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 134، 135، 136، 137، 138، 142، 143، 147، 151، 155، 157، 162، 164، 165، 189، 195، 196، 198، 199، 201، 203، 282، 348، 349، (2) 72، 73، 245
مرامر (مدينة): (1) 159
مرتفع الرقص: (1) 368
المرسى (مدينة بتونس): (2) 82
المرسى الكبير (بوهران): (2) 9، 31
مرسية: (1) 135
مزاب (قصور): (1) 32، (2) 134، 135، 151
مزدغة (مدينة): (1) 363
مزغران (أو مزكْران): (2) 32، 251
المزمة: (1) 328، 329
مزندران: (2) 224
مستغانم: (1) 51، (2) 32، 251
مستنقعات أزغار: (1) 306
مسجد آيت عياض: (1) 185
مسجد ماسة: (1) 114
مسجد مدينة بزو: (1) 170
مسراتة: (1) 32، (2) 111، 112
مسلاتة: (1) 32، (2) 111
مسيلة (مدينة ومفازة): (1) 51، (2) 52، 102، 138
مسين: (2) 96، 101
مصب نهر سبو: (1) 210، 212
مصر: (1) 29، 34، 42، 43، 46، 65، 71، 72، 82، 85، 86، 95، 272،

273، 296، (2) 69، 77، 87، 109، 147، 156، 178، 179، 180، 181، 183، 185، 186، 187، 188، 189، 190، 191، 192، 220، 221، 222، 230، 256، 262، 265، 271، 272، 282
مصر العتيقة: (2) 211
مضغرة: (2) 123، 254
مضيق أعمدة هرقل: (1) 28، 30، 312، 316، 324
مضيق (باب المندب): (1) 30
مضيق جبل طارق (أو المضيق): (1) 71، 72، 201، 317، 318، 325
المطرية: (2) 213
معبد الإلهة فيستا: (1) 67
معدن عوام (مدينة): (1) 203، 204
معرض الأسود بقصبة مراكش: (1) 134
المعسكر (قرية): (2) 26
المعلقة (مدينة): (2) 233
المعمورة (مدينة): (1) 210، 211، 213، (2) 248
المعيصرة (مدينة): (2) 234
المغرب: (1) 27، 285، 350
مغيلة (مدينة): (1) 297
المقرمدة: (1) 292
المقطم: (2) 203، 215
مكة المكرمة: (2) 181، 232، 239، 240
المكسولة: (2) 82
مكناسة (أو مكناس): (1) 51، 167، 207، 214، 215، 216، 217، 239، 294، 297، 314
مكناسة (قبيلة): (1) 214
ملولو (نهر): (1) 340، 350، (2) 250
ملوية: (1) 193، 340، 344، 347، 350، 362، (2) 7، 250
مليانة: (1) 51، (2) 34
مليلة: (1) 341
مملكة الأندلس: (1) 329
مملكة بجاية: (2) 49
مملكة بورنو: (2) 175، 176، 177
مملكة تلمسان: (1) 349، (2) 43
مملكة تونس: (1) 196، 313، (2) 49
مملكة ڭاوڭا: (1) 33، (2) 177
مملكة الغرب: (1) 349
مملكة غينيا: (2) 162
مملكة فاس: (1) 191، 193، 194، 208، 209، 210، 215، 301، 318، 324، 340، 348، 349، 351
مملكة كوبر: (2) 170
مملكة مالي: (2) 164
مملكة النوبة: (2) 179، 180
مملكة ولاتة: (2) 161
مملكة وانكرة: (2) 174، 175
منبع نهر سو: (1) 361
منجم حديد جبل بني سعيد: (1) 344
منجم حديد جبل بني يستيتن: (1) 359
منجم حديد معدن عوام: (1) 203
منجم حديد هسكورة: (1) 169
المنستير (مدينة): (2) 84، 85
المنشية: (2) 237، 238
المنصورة: (1) 198، 200
منف: (2) 191، 193

منفلوط: (2) 236
منفيس: (2) 233
منورْقة (جزيرة): (2) 30، 36، 38
المنية (مدينة): (2) 235
مهدية (مدينة في الأطلس): (1) 364
المهدية (مدينةبتونس): (2) 72، 85، 86، 87
المورة، انظر بحر المورة.
موريطانيا: (1) 32، 40، 47، 50، 55، 68، 72، 73، 78، 84، 130، 217، 219، 220، 242، 295، 302، 306، 312، 316، 317، 329، 348، 361، (2) 88، 109، 119، 267، 268، 279، 283
الموصل: (2) 205
ميلة (مدينة): (2) 60
مينا (نهر): (2) 251
ميورقة (جزيرة): (2) 30، 37، 38، 205
مييس (جبل..): (1) 28
نابل (أو نابولي): (1) 327، (2) 82، 120، 144
ناحية مراكش: (1) 36
نارنجة (قصر قرب اللكوس): (1) 309
نارني (مدينة): (1) 136
نكّاوس: (2) 102
نجد: (1) 57
النخيلة (مدينة): (1) 198، 199
ندرومة: (1) 350، (2) 13
نفزاوة: (1) 32، (2) 145
نفطة: (1) 32، (2) 139
نفيس: (2) 245
نفيفة (جبل): (1) 111، 122، 138
نكاوس (مدينة): (2) 53
نَكُّور (نهر): (1) 324، 328، 340، 344، 345، 346، (2) 16
نهر أبي نصر (أو بونصر): (1) 299، 301
نهر فاس: (1) 220، 222، 223، 238، 244، 248، 279، 281
نواعير فاس الجديد: (1) 284
النوبة أو (النوبية): (1) 33، 39، (2) 241
نوميديا: (1) 28، 29، 31، 32، 34، 35، 40، 42، 47، 51، 52، 55، 56، 61، 62، 67، 72، 73، 75، 81، 82، 83، 84، 85، 87، 347، 352، 362، 363، 364، 367، 368، 369، 370، (2) 7، 59، 61، 63، 64، 86، 90، 91، 97، 102، 108، 111، 112، 115، 116، 127، 129، 131، 133، 134، 136، 138، 140، 142، 161، 163، 185، 193، 250، 254، 259، 260، 262، 265، 276، 277، 280، 282، 283
نون (واد..): (1) 28، 29، 54، (2) 108، 163
نيابوليس: (2) 82
النيجر: (1) 30، 33، 72، 77، 82، 115، (2) 161، 163، 164، 165، 166، 170، 173، 175، 255، 269، 271
نيرا (نهر): (1) 136
نيسيويس: (2) 53
النيل: (1) 27، 28، 30، 34، 41، 82، (2) 154، 155، 163، 177، 179، 180، 185، 186، 192، 193، 200، 201، 202، 210، 211، 213، 214،

232، 233، 235، 239، 240، 241، 242، 255، 256، 257، 265، 269، 270، 271، 272
نيميفيا: (2) 69
نينوى: (2) 205
الهبط: (1) 31، 193، 306، 312، 320، (2) 248، 249
هداجية (مدينة): (1) 350
هرقلة: (2) 83
هريان عظيمان بقصبة مراكش: (1) 133
هسكورة: (1) 30، 163، 164، 166، 170، (2) 246، 254
هلّيل: (2) 26
هنتاتة (جبل): (1) 142، 143، (2) 245
الهند: (1) 86، 219، (2) 258
هنشر: (2) 67
هنكيسة (جبل): (1) 120، 121
هنين (مدينة): (2) 15
هير: (1) 33
الواحات (الخارجة): (1) 29، 32، (2) 156
واد البربر: (2) 253
واد الجواهر: (2) 249
واد كُبر: (2) 132
واد زا: (1) 348، 379، (2) 7، 250
واد زيز: (2) 120، 123، 125، 127
واد العبيد: (1) 36، 147، 163، 169، 176، (2) 246
واد قابس: (2) 253
الواد الكبير (الصمام): (2) 7، 272
واد منى: (2) 28، 29
واد الملح: (2) 38
وانكْرة: (1) 33، 39، (2) 174، 175
وجدة: (2) 12
ودان: (1) 32، 54، (2) 116
ورغة: (1) 306، 307، 308، 324، 337، 338، (2) 248
وركْلة: (1) 32، 50، (2) 136، 137، 153
وسلات (جبل): (2) 90
وكدة (قصور): (2) 32
ولاتة (مملكة..): (1) 29، 33، 39، 54، 77، 120، (2) 108، 117، 148، 160، 162، 163، 171
وليلي: (1) 295، 296، (2) 17
ونشريس (جبل): (2) 28، 45، 251
وهران: (1) 51، 129، (2) 7، 9، 15، 16، 23، 30
ويلبا: (2) 70
يابسة (جزيرة): (2) 30، 36، 38
يدوغ (نهر): (2) 252
يلّيش (مدينة): (1) 327
اليمن: (1) 27، 30، 34، 35، 39، 46، 57، (2) 262
ينبع: (2) 240، 242
اليونان: (2) 106

فهرس
الكتب المذكورة في متن وصف افريقيا

أعلام نبوة محمد (عليه السلام) للكلبي (1) 296
تاريخ ابن خلدون (1) 57
تاريخ ابن الرقيق (1) 38، 71
تاريخ افريقيا الحديث للحسن الوزان (1) 101
تاريخ مراكش (الذيل والتكملة) لابن عبد الملك المراكشي (1) 135
التوراة (1) 142، (2) 70
حياة فلاسفة العرب للحسن الوزان (1) 275
رحلة ابن بطوطة (2) 99
سر الأسماء الحسنى (1) 273
شرح قصائد ابن الفارض للفرغاني (1) 271
شرح قصائد ابن المغيربي في الكيمياء لملوك دمشقي (1) 257
شرح مقامات الحريري (1) 270
شمس المعارف للبوني (1) 273
عقائد النسفي (1) 137
عقيدة المهدي بن تومرت (1) 141
القرآن (الكريم) (1) 261، 269
قصائد ابن الفارض (1) 271
قصائد (ابن) المغيربي في الكيمياء (1) 275
الكتابات على القبور في بلاد البربر للحسن الوزان (1) 280
كتاب الأكفاني في الفرق الإسلامية (1) 273
كتاب التصوف للحارث بن أسد البغدادي (1) 267
كتاب جابر في الكيمياء (1) 275

كتاب السهروردي (آداب المريدين) (1) 270
كتاب الطغرائي (مؤيد الدين) في الكيمياء (1) 275
كتاب عن صلحاء افريقيا (1) 171
كتاب الغزالي (احياء علوم الدين) (1) 268
كتيب الشريعة والعقيدة في الإسلام للحسن الوزان (1) 258، 259
كنز الفلاحة المترجم في قرطبة من اللاتينية إلى العربية (1) 80
اللمعة النورانية للبوني (1) 273
مختصر تاريخ الإسلام للحسن الوزان (1) 108، 119، 130، 151، 161
المدونة (لسحنون) (1) 106

مصادر الترجمة والتعاليق

لقد رجعنا في ترجمة وصف افريقيا وكتابة بعض التعاليق ومراجعة ماترجمناه منها عن الفرنسية ــ زيادة على المصادر الواحد والثلاثين المذكورة في المقدمة ــ إلى عدد كثير من المصادر التاريخية والجغرافية واللغوية وغيرها، وأثبتنا أهمها فيما يلي مرتّبة على أسماء المؤلفين بحسب حروف المعجم:

ــ ابن أبي دينار (محمد) **المؤنس في أخبار افريقيا وتونس**، تحقيق محمد شمام، تونس، 1967.

ــ ابن أبي الضياف (أحمد) **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهدالأمان**، 8 أجزاء، تونس 1963.

ــ ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي) **صورة الأرض أو المسالك والممالك**، دار مكتبة الحياة بيروت، بدون تاريخ.

ــ ابن خلدون (عبد الرحمان) **كتاب العبر**، 7 أجزاء، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1956.

ــ ابن العربي (الصديق) **كتاب المغرب**، الرباط، 1956.

ــ ابن عسكر (محمد) **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، دار المغرب الرباط، 1976.

ــ الأسدي (محمد بن محمد بن خليل) **التيسير والاعتبار، والتحرير والاختبار، فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار**، تحقيق د. عبد القادر طليمات، دار الفكر العربي، 1968.

ــ إسماعيل باشا البغدادي، **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، جزآن استنبول، 1945. ــ **هدية العارفين أسماء المؤلفين المصنفين**، جزآن، استنبول، 1951.

ــ الأفراني (محمد) **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، المطبعة الحجرية بفاس، بدون تاريخ.

ـ الجيلالي (عبد الرحمن) **تاريخ الجزائر العام**، جزآن، مكتبة الحياة بيروت، 1965.

ـ حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، جزآن، استنبول، 1941.

ـ حجي محمد ـ **الزاوية الدلائية**، المطبعة الوطنية بالرباط، 1964.

ـ د. حسن إبراهيم حسن:

  ـ **انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الافريقية وغربها**، القاهرة، 1957.

  ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، 3 أجزاء، القاهرة 1953.

  ـ **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب**، القاهرة 1958.

ـ حسن حسني عبد الوهاب:

  ـ **خلاصة تاريخ تونس**، الدار التونسية للنشر، 1968.

  ـ **ورقات عن الحضارة العربية بافريقية**، 3 أجزاء، تونس، 1965.

ـ دوفيردان، مراكش، جزآن، الرباط، 1959.

ـ زبادية (عبد القادر) **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين**، الجزائر، 1971.

ـ السراج (محمد) **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر 1970.

ـ سركيس (يوسف) **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، جزآن، القاهرة، 1928.

ـ السعدي (عبد الرحمن) تاريخ السودان، **باعتناء وترجمة هوداس**، باريز، 1964.

ـ عنان محمد عبد الله، **دولة الإسلام في الأندلس**، القاهرة، 1955.

ـ العياشي أبو سالم، **الرحلة العياشية أو ماء الموائد**، جزآن، المطبعة الحجرية بفاس، 1898.

ـ الفاسي محمد البشير، **قبيلة بني زروال**، الرباط، 1962.

ـ القلقشندي (أحمد) **صبح الأعشى في كتابة الإنشا**، 14 جزءاً، دار الكتب المصرية 1913 - 1920.

ـ كحالة (عمر رضى) **معجم المؤلفين**، 15 جزءاً، دمشق، 1957.

ـ كعتيى (محمد) **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، باريز 1964.

ـ **مجهول، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، باعتناء وترجمة هوداس**، باريز، 1966.

ـ المدني (أحمد توفيق):

  ـ **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا**، الجزائر، دون تاريخ.

  ـ **كتاب الجزائر**، المطبعة العربية في الجزائر، 1350هـ.

ـ المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، أو **خطط المقريزي**، جزآن، دار صادر بيروت.

ـ **منقريوس رزق الله، تاريخ دول الإسلام**، 3 أجزاء، القاهرة، 1907.

- الناصري أحمد، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، 9 أجزاء، الدار البيضاء، 1954.
- الحموي ياقوت، **معجم البلدان**، 10 أجزاء، مطبعة السعادة بمصر، 1906.
- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب المعروف بابن واضح) **تاريخ اليعقوبي**، دار العراق بيروت، 1955.

فهرس الخرائط

	الجزء	الصفحة
مملكة مراكش	1	94 — 95
مملكة فاس	1	192 — 193
مملكة تلمسان	2	4 — 5
مملكة بجاية وتونس	2	48 — 49
مملكة طرابلس	2	96 — 97
منطقة نوميديا	2	114 — 115
مصر	2	184 — 185

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 1983/4/2000/25
سحب جديد 1988/10/2000

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف ٢-٨٣٨١٥٧ ٨٣٧٧ - بيروت - لبنان

Jean - Léon l'Africain (al - Hasan al - Wazzan)

DESCRIPTION DE L'AFRIQUE

Trad.en Arabe par

Dr.M.Hajji
Dr.M.Lakhdar

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

DESCRIPTION DE L'AFRIQUE

Jean - Léon l'Africain (al - Hasan al - Wazzan)

DESCRIPTION DE L'AFRIQUE

Trad.en Arabe par

Dr.M.Hajji Dr.M.Lakhdar

DAR AL-GHARB AL-'ISLAMI
Beyrouth